

شيءٌ من رحلة

الدكتور

أحمد محمد الرحمن النقيب

قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية
كلية التربية - جامعة المنصورة



شيءٌ مُفْتٍ لِمَرْحَلَةٍ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ ٢٠١٥ م

رقم الإيداع
٢٠١٥/١٧٧٠



هاتف

٠١٠٢٦٦٢٢١٣٣ - ٠١١٢٠٠٠٠٤٣٠

إصدارات اللجنة العلمية للدراسات

شيءٌ مُفْتَنٌ لمرحلة

الدكتور

أحمد محمد الرحمن النفيعي

قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية
كلية التربية - جامعة النصورة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

فإن المرحلة يقصد بها: الفترة الزمنية المحددة، فهي ليست ممتدة، أو ليست محددة^(١)، إنها جزء زماني من عمر الأمة، قد يطول وقد يقصر، لكن لأحداثه وأحواله: له طبيعة خاصة، هذه الطبيعة تمثل بُعداً من أبعاد العمر الزمني لأمة الإسلام، أيضاً هذا البعد الزمني يحتاج إلى تأملات وتصورات وسلوكيات تناسب هذه المرحلة، وهنا يأتي بركة الفقه الإسلامي بمرونة قواعده واتساع مقاصده! لكن لا يتصور أن يحدث في المرحلة ما يسبب خللاً في كينونة الأمة وشخصيتها الإسلامية وهويتها العقائدية؛ ذلك أنه من الأمانة المفروض علينا القيام عليها: المحافظة على الأمة كينونة وشخصية وهوية، ولن يتأتى هذا بترك شيء من الدين من أجل ما يتصور أنه مصلحة!! ودرء مفسدة!! وإنما يتحصل هذا الواجب بالاستمسك بما أنزل على النبي محمد ﷺ، وهو الوحي الشريف المطهر.

لقد ظنَّ البعض أن من فقه المرحلة: التنازلات من أجل إقامة مصالحٍ هي في الحقيقة متوهمة، بل هي - عند التأمل - ضررها وبيل وفسادها عريض، لكن يا ترى من ذا الذي تجرأ على مقام الدين لِيُقَصِّلَ فيه (المصلحة والمفسدة)؟

(١) انظر حول هذا المعنى لمجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط (١/ ٣٤٧) القاهرة، ط ٣-١٩٨٥ م.

هل كانوا من عوام الناس وأهل الدونية فيهم؟ هل كانوا من أعداء الإسلام من منافقي العصر؟ أم هم الطابور الخفي الذي يتحرك بالحساب وبالتكتيك لمصالح لا تعرف في المرحلة، وإنما تعرف بعد تجاوز المرحلة؟ لا يهمني أن أُوصِّفَ مَنْ هم حسب ما ذكرت؛ لأنهم - كما أعتقد - ليسوا شيئاً مما ذكرت، وإنما هم طائفة أحبها أهل الوطن، تقيم بهم الصغير قبل الكبير، والنساء قبل الرجال، والقاصي قبل الداني؛ لمكانتهم الدينية، وسلطانهم على قلوب الخلق، إنهم طائفة من يُظن فيهم الإبلاغ عن الله ورسوله ﷺ وإظهار الحق لعباد الله!

وهنا كانت المأساة عظيمة! كثر الخبط في هذه المرحلة، وحمل البعض هذه المرحلة ما لا تحتمل، وحاول البعض القفز عليها دون جدوى!! وظن البعض أن المرحلة مقدمة لمراحل محسوبة عندهم، ولكنها مراحل الخيال!! وفي وسط هذا الركام، وبين هذه الجلبة وهذا الضجيج، كانت هذه الكلمات هادفة إبصار الحقائق دون مجازفة أو هوى؛ إرضاءً لله ونصيحة لأمة الإسلام، اللهم اجعل لهذه الكلمات قلوباً واعية وأذاناً سامعة وعقولاً فاهمة، اللهم تقبل واغفر وارحم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على النبي محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

شيء من فقه المرحلة

المقال الأول: ضرورة الاعتبار بسنن التاريخ (*)

الزمن في مراحل التاريخ مُتقاربٌ جداً؛ فلقد قال النبي ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتين ويشير بإصبعيه فيمد بهما»^(١)، فمرحلة ما بين البعثة والساعة تمتدُّ في الزمن قروناً، مع أن الخطاب دالٌّ على الاقتران، فمراحل التاريخ تمتدُّ لسنوات أو لقرون؛ لتشمل أحداثاً ووقائع عظيمة، ولا يُمكن لمُرءٍ -أيّاً كان- أن يفقهَ مرحلة تاريخية حتى يفقهَ المراحل السابقة، ويستدعي من قائمة حضوره التاريخي ما يُناسب ويُشابه أحداث مرحلته؛ وبذا يتعمقُ الفكرُ الإنسانيُّ عموماً، ويتجذّرُ تصوّرُ الإسلامي لحركة البشر في الزمن، هذه الحركة التي من مظاهرها: الأحداث والوقائع.

إن أحداث ووقائع ما نعيشه الآن من تراحم الإسلاميين [الإخوان ومن شائعهم/ السلفيين الديمقراطيين] على السُّلطة! زعماً تحكيم الشريعة وتأسيس دولة الإسلام!! إنهم من أجل الوصول إلى السلطة زاحموا العلمانيين ومن

(*) هذه المادة : مقال كتب بمجلة المحجة البيضاء الإلكترونية العدد ٢٠ بتاريخ: شوال ١٤٣٤هـ .

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري (٦٥٠٣ - الرقاق) ، ومسلم (٢٩٥٠ - الفتن) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .

شايعهم، وانطلى منطقهم على كثير من المتدينين، فظنوا أنهم بتلك المزاحمة سيبنون دولة الإسلام ويقيمون شرائع ربّ الأنام فأسسوا الأحزاب، وجمعوا الأتباع، وأنفقوا الأموال، وبدأت الحرب! ولاحت بواكير النصر فظنوا أن المعركة قد انتهت، وظنوا أن النصر الأكيد لن يكون إلا بمزيد من التنازل عن أفكارهم وعقائدهم، فآمنوا بما كانوا به كافرين، وسلّموا بما كانوا به جاحدين مُنكرين! لقد آمنوا وسلّموا بالتوافق والإرادة الشعبية ودولة المؤسسات والشراسة والمواطنة، وظنوا أنهم بذلك قد أحسنوا صنعا، وأن هذه العقبات التي تواجههم إنما هي عقبات الشائنين المُرجفين، أو الباغين الجاهلين، وسرعان ما ستذوب مع الأيام!!

فما حدث؟! تحذيرات ربانية تلوح في الأفق، ثم تستطيل وتستعرض؛ لعلها تشاهد، لكن لم يفقه القوم!! ثم كانت النكبة الشديدة! إنها أعظم من نكبة البرامكة^(١) في عهد بني العباس!! ولكنها أخف كثيرا من نكبة ابن الزبير سنة (٧٣هـ)^(٢)، ومن بعده نكبة الفقهاء ورأسهم: عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث سنة (٨٣هـ)، وأجد نفسي - ضرورة - أحتاجُ إلى سطرٍ بعض الجمل في بيان هذه المرحلة الزمنية السابقة، التي تمتدُّ من قَبْل سنة (٦٤هـ) وحتى سنة (٨٣هـ)^(٣)؛ لِأَقِفَ على بعض أحداثها، وأسَلِّطَ الضوء على شيء من واقعها ووقائعها، وهذا كله ليس من باب الثرثرة أو القصص والحكاية، وإنما هذا من باب دراسة ما مضى

(١) راجع ذلك في البداية والنهاية لابن كثير (٦٣٩ / ١٣) وما بعدها، ط. التركي .

(٢) راجع ذلك في البداية والنهاية لابن كثير (١٧٧ / ١٢)، (١٨٦ / ١٢) .

(٣) راجع ذلك في البداية والنهاية لابن كثير (٣٠٥ / ١٢) وما بعدها .

من مراحل مُشابهة؛ لِيُمْكِنَ لنا أن نُفِيدَ ونستفيد، فلا نمشي مشيَ الأعمش في الظلمة الدَّامِسة، أو مشيَ الغافل الغرِّ السفِيه في دروب المفاوز القاحلة!!

الجملة التاريخية الأولى: أن كلَّ من حاول تثبيت حقِّه في الحكم بالسيف والمُغالبة: سبَّبَ دِماء، وإنما المُغالبة بالحُجَّة لا بالمسايِفة، والمُغالبة بالحجة لا تكون إلَّا في المجتمع الصالح الذي ننشُدُه!! لم يحدث هذا إلَّا زمن الصحابة في سقيفة بني ساعدة، عندما كانت المُغالبة بالحُجَّة والبرهان، فكانت الحُجَّة للمُهاجرين ورأسُهم آنذاك: (أبو بكر الصديق وعمرُ بن الخطاب رضي الله عنهما) وانقادَ الجميع، وصارتِ القاصمة عاصمة، ومَرَّت الأزمة!! وفي المُقابل: عندما حاول عليُّ ابن أبي طالب عليه السلام وهو صاحبُ الحقِّ وأميرُ المؤمنين، عندما حاول المُغالبة للدفاع عن حقِّه: كانت المعامع والبلابل في صفين والجمل وغيرهما، وقُتِلَ من الصحابة الكثير ومن غيرهم الآلاف!! والأمرُ نفسُه نجدهُ عند عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه: لقد كانت خلافته تسع سنين، وكما يقول ابن حجر عن خلافته ونهايته: وخلافته صحيحة، خرجَ عليه مروان ابن الحَكَم بعد أن بويَعَ له في الآفاق كلّها إلَّا بعض قرى الشام... وقتلَهُ الحجاج بن يوسف الثقفي - قائد جيش الأمويين بعد معارك شديدة الوطيس - سنة (٧٣هـ)، قُتِلَ ابن الزبير صابراً مُحْتَسِباً مُقْبِلاً غير مُدبر رضي الله عنه. اهـ بتصرُّف ^(١).

(١) ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ): تهذيب التهذيب، (٢/ ٣٣٤ - ط الرسالة)، وقال النووي في شرح مسلم (١٦/ ١٠١): ومذهب أهل الحق أن ابن الزبير كان مظلوماً، وأن الحجاج ورفقته كانوا خوارج عليه. اهـ.

إن ما حَدَثَ بسبب هذه المغالبات لشيءٍ يفوقُ التصوّرَ ويُفسدُ الأحلامَ، وما نراه اليوم من المُسلمين وحرّقهم، واستباحَت الدماء والأعراض والمساجد، في رابعة والنهضة والفتح والقائد إبراهيم والإيمان وغيرها - مما نأسى له ونأسف - هوَ قليل مما فعله الحجاج في قتالِهِ مع عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وما تلى ذلك من التّهجّم على الصحابة واحتقارهم وسبّهم وجلدّهم، بل وقتلهم!! بل وتحريك الآلة الإعلامية الضخمة آنذاك للنيل من المخالفين كما هي سنّة فرعون: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٦﴾ وَلَيْسَ لَهُمْ لَنَا لَغَآئِطُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الشعراء: ٥٤ - ٥٦] لقد ضَرَبَ الحجاجُ بيتَ الله الحرام، وحرّقَ الكعبة، وقتلَ الصّحابيَّ الجليل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، فلَمَّا قُتِلَ ابنُ الزبير كَبَرَ جُنْدُ الحجاج - وهم أهلُ الشّام - فَرَحًا بِقَتْلِهِ، فقال الصّحابيُّ العالمُ الزّاهدُ الفقيهُ عبدُ الله بنُ عُمَرَ رضي الله عنه: «انظروا إلى هؤلاء - ويعني أهل الشام - لقد كَبَرَ المُسلمون - بالمدينة - فَرَحًا بولادَتِهِ - يعني ابن الزبير؛ حيث وُلِدَ زمنُ النّبيِّ صلى الله عليه وآله بالمدينة، وهؤلاء يُكَبِّرونَ فَرَحًا بِقَتْلِهِ!»، وأرسلَ الحجاجُ برأس ابن الزبير وبرءوس بعض أولاد الصحابة والفُقهاء كعبد الله بن صفوان، وعمارة بن عمرو بن حزم،... أرسلَ بهذه الرءوس إلى المدينة ثمَّ إلى دمشق، وصَلَبَ الحجاجُ جثّة ابن الزبير على خشبة بالحجون بمكة ووَكَّلَ بها مَنْ يحرُسُها، فمرَّ به عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنه وهو يبكي ويقول: «السلام عليك أبا خبيب! أما والله لقد كُنْتُ أَنُهَاكَ عن هذا ^(١)،

(١) ليس عندنا ما يدلُّ على أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه نهاه أن يكون أميراً للمؤمنين، فهو لم ينزع يدا من طاعة! ولذلك يتوجّه هذا النهي إلى مُواصلة القتال، وعدم قبول الأمان والنزول على حكم أهل الشام، ولعلَّ عُذْر ابن الزبير أنه عندما أحيط به في مكّة لازِمَ الحرم وأحاطت به جيوش أهل الشام حتى سال الوادي بهم، فظنَّ أنه =

ولقد كُنْتُ صَوَّامًا قَوَّامًا وَصَوَّالًا لِلرَّحْمِ.

ثمَّ إنَّ الحَجَّاجَ أَخَذَ الْبَيْعَةَ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَأَمَرَ بِكَنْسِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْدَّمِ، ثُمَّ ذَهَبَ الْحَجَّاجُ إِلَى الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ فَاسْتَخَفَّ بِأَهْلِهَا، لَدَرَجَةٍ أَنَّهُ خَتَمَ عَلَى يَدِ وَأَعْنَاقِ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالرِّصَاصِ [أَي: جَعَلَ أَطْوَاقًا مِنَ الرِّصَاصِ بِأَيْدِيهِمْ وَأَعْنَاقِهِمْ كَالْعَبِيدِ وَالْذُّوَابِ] اسْتَخْفَافًا بِهِمْ وَاحْتِقَارًا، مِنْ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةِ: جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، وَأَنْسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه، وَسَهْلُ بْنُ سَعْدٍ رضي الله عنه ^(١)، بَلْ قَتَلَ مِنَ الصَّحَابَةِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ - وَقَدْ مَرَّ - ، وَأَبُو عَنبَةَ الْخَوَلَانِيُّ وَلَهُ صَحْبَةٌ وَرَوَايَةٌ عَنِ النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وآله، قَتَلَهُ الْحَجَّاجُ وَقَدْ قَارَبَ الْمِائَةَ... ^(٢).

الجملة التاريخية الثانية: أَنَّ مَنْ حَاوَلَ مُزَاحِمَةَ أَهْلِ السُّلْطَانِ وَانْتِرَاعَهُ مِنْهُمْ: سَبَبَ الدَّمَاءَ، وَكَانَتْ الْفِتْنُ وَالْبَلَايَا وَالرَّزَايَا، وَلَا يَظُنُّ ظَانٌّ أَنَّهُ بِالْقُدْرَةِ يَجُوزُ ذَلِكَ، فَالْقُدْرَةُ غَيْرُ مُنْضَبِطَةٍ، وَإِذَا كَانَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِ قُدْرَةٌ، وَغُلِبَ وَسُفِكَ الدَّمُ الصَّبُّ السَّفُوحُ، وَإِذَا كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْمُلَقَّبُ بِالنَّفْسِ الزَّكِيَّةِ لَهُ قُدْرَةٌ أَعْظَمُ وَجُنْدٌ أَكْثَرُ، وَانْتَهَى أَمْرُهُ إِلَى الْإِضْمَحْلَالِ، فَإِنْ أَحَدًا لَيْسَ فِي قُدْرَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ الْكِندِيِّ، لَقَدْ رَوَى الْحَدِيثُ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنْ رَبِّهَا يَكُونُ الْعَائِذُ اللَّائِذُ بِالْبَيْتِ، وَأَنَّهُ رُبَّمَا يُخَسَفُ بِهِؤُلَاءِ!! فَصَبَّرَ رَجَالَهُ، وَكَانَ رَأْيُ ابْنِ عُمَرَ غَيْرَ هَذَا، فَتَوَجَّهَ النَّهْيُ إِلَى هَذَا وَعَنْ هَذَا صَدَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) انظر في هذا لابن الأثير: «الكامل في التاريخ»، (٤/ ٢١) وما بعده - ط. دار الفكر.

(٢) انظر لابن كثير: «البدية والنهاية» (١٢/ ٣٥١) - ط. التركي.

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وحديثه عند أبي داود في السنن^(١)، وكان أتباعه مئات الآلاف! جلهم من الفقهاء والقراء وأهل العلم من أولاد الصحابة والتابعين، بل شاركهم بعض الصحابة، ومع هذه القدرة غير المسبوقة: سفكت الدماء، واضطربت الأمور من قبل سنة (٨١هـ) حتى مقتل عبد الرحمن بن الأشعث بعد سنة (٩٠هـ)...

لقد قتل الحجاج بعض الصحابة، منهم: وائلة بن الأسقع، وقُتل من ولد الصحابة الكثير، منهم: محمد بن سعد بن أبي وقاص، ومن أهل العلم الكثير، منهم: زر بن حبيش، وكميل بن زياد، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعمران بن عصام الضبعي، بل قتل الحجاج بين يديه من أتباع عبد الرحمن ابن الأشعث مائة ألف وثلاثين ألفاً منهم: سعيد بن جبير رضي الله عنه^(٢)، ومن أجل ذلك يصف ابن كثير خروج ابن الأشعث - غير القرشي - مع قدرته وكثرة أتباعه وفضلهم: علماً وزهداً وعبادة، يصف ذلك بأنه: «زلة وفلته، نشأ بسببها شر كثير، هلك فيه خلق كثير، فإنا لله وإنا إليه راجعون!!»^(٣).

الجملة التاريخية الثالثة: أن أهل الدنيا يُهلكون من نازعهم فيها، والدنيا هي: المال والشرف؛ لقول النبي ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا على زريبة غنم

(١) انظر للحافظ المزي: «تهذيب الكمال» (١٧/ ٣٥٩-٣٦٠) - ط. الرسالة، ولا بن حجر: «تهذيب التهذيب» (٢/ ٥٤٦) - ط. دار الفكر.

(٢) راجع لابن كثير: «البداية والنهاية» (١٢/ ٣٤٥-٣٤٩) - ط. التركي.

(٣) انظر لابن كثير: «البداية والنهاية» (١٢/ ٣٥٥) - ط. التركي.

بأفسد لها مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ...» الحديث (١).

فَمَنْ تَرَكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا دُنْيَاهُمْ، فَلَمْ يُزَاحِمْهُمْ لَا فِي مَالٍ وَلَا فِي شَرَفٍ (وجاهة - سلطة - مناصب - ...): سَلِمَ مِنْ شُرُورِهِمْ وَأَذَاهُمْ، لَقَدْ كَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ فَقِيهًا رَاوِيًا لِلْحَدِيثِ، وَمَعَ هَذَا عِنْدَمَا دَخَلَ فِي مَسْأَلَةِ الشَّرَفِ (الرئاسة) التَّهَى عَنْ عِلْمِهِ، فَعَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ قَالَ: كَانَ فَقَهَاءُ الْمَدِينَةِ أَرْبَعَةً: سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَقُبَيْصَةُ بْنُ ذُؤَيْبٍ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ ابْنُ مَرْوَانَ. اهـ (٢).

وَمِنْ عَجِيبِ عِلْمِ عَبْدِ الْمَلِكِ - قَبْلَ تَلْبِسِهِ بِالرَّئِيسَةِ - أَنَّهُ قَالَ: «كَنتُ أَجَالِسُ بَرِيرَةَ (جَارِيَةَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ أَنْ أَلِيَ هَذَا الْأَمْرَ، فَكَانَتْ تَقُولُ: يَا عَبْدَ الْمَلِكِ! إِنْ فِيكَ خِصَالًا، وَإِنَّكَ لَجَدِيرٌ أَنْ تَلِيَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَاحْذَرِ الدِّمَاءَ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْفَعُ عَنْ بَابِ الْجَنَّةِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا عَلَى مُحْجَمَةٍ مِنْ دَمٍ يُرِيقُهُ مِنْ مُسْلِمٍ بَغِيرِ حَقٍّ» (٣)، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ يَخْطُبُ عَبْدُ الْمَلِكِ فِي النَّاسِ فِي الْحَجِّ بَعْدَ مَقْتَلِ ابْنِ الزُّبَيْرِ بَعَامِينَ، فَيَقُولُ: «إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَدَاوِي أَدَوَاءَ» (*)

(١) «حسن». أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا، وَلَا بِنَ رَجَبٍ رِسَالَةٌ فِي شَرْحِ هَذَا الْحَدِيثِ اسْمُهَا: «جَامِعُ الْبَيَانِ، شَرْحُ حَدِيثٍ: مَا ذُكِرَ جَائِعَانِ».

(٢) انْظُرْ لِابْنِ كَثِيرٍ: «الْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ» (١٢/٣٧٩) - ط. التُّرْكِي.

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (٢٤/٢٠٥)، (ح/٥٢٦) عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَأَيْضًا: ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي «تَارِيخِ دِمَشْقَ»، (٤٣/٢٤١) بِسَنَدِهِ مِنْ طَرِيقَيْنِ عَنْ عَلِيٍّ

ابْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

(*) أَدَوَاءٌ: جَمْعُ "دَاءٍ"، وَهُوَ: الْمَرَضُ، انْظُرْ (١/٣١٢ - الْمَعْجَمُ الْوَسِيطُ).

هذه الأمة إلا بالسيف، ولستُ بالخليفة المُستضعف (يعني عثمان بن عفان)، ولا الخليفة المُهادن (يعني مُعاوية بن أبي سفيان)، أيها الناس: إنا نَحْتَمِلُ لكم كلَّ اللُّغوبة (يعني الحُمَق) ما لم يكن عقدُ راية أو وثوبٌ على منبر^(١).

وختلاصة القول: إنه بتدبر جمل التاريخ، وهي مرحلة سابقة ربما تكون مشابهة لما نحن فيه، مع عِظَم ما نحن فيه من حيثُ فسادِ الواقع، وتسلُّطِ أهل الزيف والضلّال وتمكُّنهم، ورفع الأخلاق والمروءة من ديار المسلمين، مع هذا جميعاً: تبقى هذه الكلمة، وهذه الكلمة أساسُها: أن السيادة والإمامة في الدين والدنيا لا تكون أبداً بمُزاحمة أهل الشرف مهما كانوا، بل تركُّ ذلك - حتى ولو كنتَ صاحب حقٍّ - فِعل أهل السيادة حقّاً، فَعَلَ ذلك عثمان رضي الله عنه حتى قُتِلَ شهيداً، وأُوضِحَ منه الحسن بن عليّ رضي الله عنه: لقد تجهَّز بجيشه وكان أميراً للمؤمنين ستة أشهر بعد مقتل أبيه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فلمَّا تراءى الجمعان ورأى عشرات الآلاف من الخلق سَتُسأل دِمَاؤُهم بعد لحظات؛ سارَعَ إلى الصُّلح وتنازلَ عن حقِّه لغريمه مُعاوية بن أبي سفيان، وحُقِنَت دماءُ المسلمين، وسُمِّيَ هذا العامُ بعام الجماعة، وصدقَ فيه ما قاله عنه جدُّه النبي صلَّى الله عليه وآله عندما أشار إليه وقال: «إن ابني هذا سيّد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين^(٢)».

(١) انظر لابن كثير: «البداية والنهاية» (٣٨٣/١٢)، وانظر لابن عساكر: «تاريخ دمشق» (٢٦٣/٤٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٧٠٤/٢ كتاب الصلح).

فحريٌّ بأهل الفضل والفضيلة أن يكونوا سادة الخلق؛ بأن يتركوا منازل
الفتن، ويكونوا أسباباً للصُّلح والإصلاح وحقق الدماء، وإن وقع شيءٌ من
ذلك لم يقعوا فيه ولم يُشاركوا ولم يتسبّبوا، وهذا كُلُّهُ متَّسِقٌ مع منهج الأنبياء
الذي يُرَكِّزُ على إصلاح المُجتمع، وأن رفع البلاء لا يكون إلا بالطاعة والدُّعاء،
وأن مُزاحمة الظالمين شرٌّ وبيل، وأن الطريق الصحيحة هي: [الإصلاح في:
الاعتقاد، والفهم، والعمل، والأخلاق]، وهذا صعبٌ - لا سيَّما في هذه
الأوقات -، وعندئذٍ يكون الصبر؛ حتى يأتي الله بأمره الذي لا يردُّه رادٌّ،
والذي يُمكنُ أن يكون أسرعَ من الزمن! أرايت كيف أن المهديَّ يُصلِّحُه الله
في ليلة واحدة!! ^(١)، فتأمل ذلك، وتأمل قوله ﷺ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ۝٢﴾ [العصر: ١ - ٣]، وتأمل قوله ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُوكَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا ثَائِرِينَ يَتُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وقوله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فالله أسأل أن يوفِّقنا، وأن يغفر لنا،
وأن يتقبَّلَ قتلانا، وأن يشفي مرضانا، وأن يعفو عن المسيء مِنَّا.

*** **

(١) «صحيح». أخرجه أحمد في المسند (٦٤٥/٢) وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٣٧١).

تحليل الأحداث «ملاحظات بالقلب وبالعين»

تمخضت الأحداث في الانتخابات الأخيرة (*) عن عدة ملاحظات لا بُدَّ من رصدها، وإهدائها للحزبيين من السلفيين والإخوان وغيرهم من الإسلاميين سالكين طريق الحل السياسي:

أولاً: أن الملك لله وحده، ففي هذا التوقيت منذ أكثر من عام، كانت الانتخابات والسلطة والدولة كلها في يد الحزب الوطني المنحل، وأتهم غيرهم بأن الشعب قد رفضهم، وتمَّ إعداد العدة للقضاء على أمة الدعوة والتربية ومنار الأمة في بيان الحق وأعني بهم: السلفيون - قبل أن تأكلهم الحزبية المقيتة - !!، قد أعدوا لهم حادثة كنيسة القديسين بالإسكندرية، واتجهت الأحداث لهذا المصير!! وعندها قلتُ لبعض تلاميذي: ربما أيامنا معدودة!! أعني: أن الاعتقال بانتظارنا!! نعم قد حَدَثَ هذا، لكن أراد الملك - سبحانه - أن تتبدل الأحوال، فإذا من يُعَدُّ لهم السجون هم الذين حماهم الله، وإذا بالظالم قد أُلقي في السجن!! ومعه جلادته وأركان ظلمه!! سبحانه الله، وعندها تتلوا قوله سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران/ ٢٦].

(*) أصل هذه المادة: مقالٌ كتب بمجلة المحجة البيضاء الإلكترونية، العدد (الثاني) بتاريخ ربيع أول ١٤٣٣هـ = يناير ٢٠١٢م.

وأيضاً: عند هذا التأمل نتذكر سنة الاستبدال، وهي سنة كونية وشرعية ماضية، فكل من بَدَّل استَبْدَل، قال تعالى : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد/ ٣٨] وهذا يدفعنا إلى مزيد من الاستمساك لا إلى التهرؤ بدعوى تجديد الخطاب، وطبيعة المرحلة، والاجتهاد دون الثواب!! وتغير الفتوى!! إلى غير هذا من الجمل المُلبَّسة التي ربما تنطلي على رفاق الحال في العلم والفهم، والله المُستعان.

ثانياً: المزاخرة لم تكن بين الإسلاميين والعلمانيين، بل صارت بين الإسلاميين والإسلاميين، وهذا ما كنا نحاذر، لقد أبلى الحزبيون الإسلاميون من كل الأطياف بلاء فائقاً في هذه الانتخابات، وأنفقوا عشرات الملايين من الجنيحات، وأجازوا لأنفسهم ما كانوا بالأمس لا يجيزونه من: خروج النساء، والتصوير الإعلاني والإعلامي، ومخاطبة ودّ غير المسلمين من العلمانيين وأرباب الأهواء، بل والنصارى، هذا كله من أجل بث الطمأنينة في قلوبهم تجاه الإسلاميين - وهيئات!!، يمكن تفهم هذا من الحزبيين الإخوان، أما أن يصدر هذا من الحزبيين السلفيين، فهذه هي الكارثة!! لقد اجتهدوا وأساغوا لأنفسهم كل شيء، وإذا أنكرت شيئاً، قالوا: هذه مواقف شخصية!! ما هذا؟! أين الضبط العلمي الذي نمتاز به نحن السلفيين؟! أين الورع والحرص على اليقين قدر الطاقة؟! أين الموالاتة الإيمانية التي كنا ندرسها لأبنائنا؟! لقد صارت الموالاتة على الحزب، وإنا لله!! أين أدب الخلاف وفقهه الذي كان يُدَرَّس للطلبة في

الدورات الفكرية والمعسكرات والمجالس الخاصة؟! لقد ذهب هذا جميعا، أو تمّ تكييفه وتوجيهه حسب طبيعته المرحلة!! وفق الأهواء الحزبية!! إن غول الحزبية لا بد أن يُوقَف، وإن قطارها لا بُدَّ أن يتوقف؛ لتعود القلوب إلى سائر ودها، وإلا فأنتم تحرثون الأرض بالنار، وإن الله تعالى سائلكم عن كل ما سيحدث بالبلد من تمرد الأفكار المنحرفة بسبب هشاشة الدعوة وانحرافها عن منهاج النبوة!! وإنا لله وإنا إليه راجعون!!

ثالثا: انتكاس الأوضاع بعد الأحداث عما هو قبل ذلك، وهذا يعني مزيدا من الجهد (الذي يفوق جهد الحزبيين الآن) ولنأخذ مثالا على ذلك: لقد كشفت صحيفة (كلكت) الاقتصادية الإسرائيلية النقاب عن أن عام ٢٠١١ م شهد ارتفاعا مقداره ٤٠٪ في تصدير البضائع الإسرائيلية لمصر، وأن معظم الصادرات الإسرائيلية تركزت على المواد الكيماوية^(١)!! فمع الرفض الشعبي لهذه العلاقات الجرثومية بين مصر وإسرائيل، إلا أن أصحاب السلطة لا يحترمون هذه الإرادة الشعبية(!!)، وفي هذا مؤشر خطير على نوايا أصحاب المجلس تجاه أحداث الواقع المرير، وأن المشهد لن يكون على وفق ما يظنه الإسلاميون، بل لا بد أن يتصوّروا معارضة قوية من هذا المجلس، وهذا ما حدا بالحزب الإخواني أن يتقارب مع هذا المجلس، ويغازله تارة، ويغضب مغاضبة الراجي تارة أخرى، هذا كله لعله أن يُجَدِّث ما يظنه خيرا... وهذا

(١) انظر جريدة الحرية والعدالة (ص / ١) الجمعة ١٢ صفر ١٤٣٣ هـ.

سَبَقُهُ في هذا الاتجاه، بخلاف غيرهم الذين يتلونهم بخطوة!! إذا تنازلوا أتى مَنْ بعدهم فاقتفوا أثرهم، وإذا أقدموا على نكسة ركبها مَنْ بعدهم، حتى إذا أشاعوا شائعة، مثل تصدير د. عصام العريان لتولي مجلس الشعب، يأتي الحزبيون السلفيون ليعلنوا أيضا أنهم يفكرون في دفع نائب لهم تحت قبة البرلمان لهذا المنصب!! وعندما أعلن حزب الإخوان أن هذه إشاعة، لم يعلن الحزب السلفي عن ذلك، وهذا دليل على أن هناك وَضْعاً مأساوياً يفهمه الإخوان ويحاولون تفاديه، بينما الحزبيون السلفيون يضعون خطاهم قبل الدراسة، وهذا خطأ كبير في حق تلاميذنا الذين ظنوا نصره الدين من خلال الحزبية!!

رابعاً: ضرورة غسل اليد من كل ما يثير القلب ويُذمِّيه، ولنطو صفحة الحزبية؛ ليتحد السلفيون تحت مظلة العلم والعمل والدعوة ونفع المسلمين، وهذه طبيعة المرحلة سابقا والآن ولاحقا، وهذه النقطة تحتاج إلى نفس أطول.

ففي الوقت الذي يهرع الناس بعيدا عن المنهج السلفي بزعم المحافظة على المنهج السلفي!! نجد إماما سلفيا ومصلحا ربانيا، عاش واقعا أشد مرارة من واقعنا، واستطاع بثبات منهجه وصلابة رؤيته أن يغير هذا الواقع عبر السنين إنه: عبد الحميد بن السيد محمد المصطفى بن ملكي بن باديس^(١)، ينتهي نسبه إلى أهل الشرف والإمارة والنخوة والديانة، منهم: المعز لدين الله ابن باديس، الذي حارب البدعة ونصر السنة وأظهرها، فأزال مذهب الشيعة

(١) وقد نُشرت هذه الترجمة في مجلة «المحجة البيضاء» الإلكترونية في العدد الثاني، ص/٣٦.

الباطنية وأعلن مذهب أهل السنة والجماعة ، وانفصل عن الدولة الفاطمية العبيدية بمصر ، وكان ذلك في حدود سنة ٤٠٤ هـ ، وقد توفي الأمير المذكور سنة ٤٥٤ هـ - تقريبا .

نشأته ورحلته في طلب العلم : ولد بمدينة قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري يوم الجمعة ٤ ديسمبر عام ١٨٨٩ م ، وكان والده من حفظة القرآن وأهل التجارة والزراعة ، حيث تتلمذ على غير شيخ ، منهم: الشيخ محمد القاهر بن عاشور والشيخ محمد النخلي القيرواني وكانا من أساتذة التفسير واللغة والأدب ، ولم يُدْخَلْ ابنه المدارس الفرنسية ، بل أرسله إلى الشيخ محمد ابن المدّاسي حيث حفظ عليه القرآن ، ثم تَوَجَّهَ إلى الشيخ حمدان الوئيس فتلقى عليه العلوم العربية والإسلامية ، والشيخ حمدان هو تلميذ المصلح الجزائري الشيخ عبد القادر المجاوي ، وكان سلفيا توفي بمدينة قسنطينة سنة ١٩١٣ م ، ثم رحل في طلب العلم ، فرحل إلى تونس وقد حرص الوالد على تربية ولده تربية صالحة منذ أن بصر النور ، فقد قال ابن باديس في حفل ختم تفسير القرآن ١٩٣٨ م أمام حشد كبير من المدعوين نشرته مجلة الشهاب - إن الفضل يرجع أولا إلى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة ، ورضي لي العلم طريقة أتبعها ومشربا أردّه ، وبراني كالسهم ، وحماني من المكاره صغيرا وكبيرا ، وكفاني كلف الحياة ... فلاشركه بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر . وكان أيضا مما أثر في تكوينه السلوكي: مشايخه منذ الصغر ، فهذا وصية الشيخ

حمدان الونيس: "اقرأ العلم للعلم لا للوظيفة" بل أخذ عليه عهدا ألا يقرب الوظائف الحكومية عند فرنسا. ثم رجع إلى الجزائر، ثم في موسم حجة سنة ١٩١٣م حج إلى الديار المقدسة حيث التقى بأستاذه حمدان الونيس وأيضا بالشيخ حسين أحمد المدني الهندي، وأيضا بالشيخ البشير الإبراهيمي، كما طاف عددا من المدن العربية، فزار سوريا ومصر، وفيها التقى واستقاد واستجيز من الشيخ محمد نجيب المطيعي، وأيضا استقاد بمصر من الشيخ أبي الفضل الجيزاوي، كما تأثر بشدة بالأستاذ محمد رشيد رضا، بل قال عنه "فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم في العالم" إصلاحا وهداية، بيانا ودفاعا "كلها من آثاره"^(١).

مجل حياته حتى وفاته : اشتغل ابن باديس أولا بالتدريس في جامع الزيتونة ثم التدريس بالجامع الكبير ثم الجامع الأخضر، وهذان في قسنطينة، كما كان يعلم الصغار في الكتاتيب أول النهار وآخره، ثم انشغل مع التدريس بالإفتاء وشهر ذلك عنه؛ كما عمل بالصحافة وكتابة المقالات، وكانت له مواقف واضحة شجاعة من الأحداث الإسلامية عامة والجزائرية خاصة، فقد كان يرى ضرورة استقلال الجزائر عن هذا الاحتلال الفرنسي الذي جثم على صدرها لأكثر من قرن من الزمان، فغَيَّر البلاد والعباد، ومن هنا كان منهجه في التغيير (كما سنبين)، كما كان له موقف واضح محدد من قضايا الخلافة الإسلامية ومسألة تقسيم فلسطين.

(١) مجلة الشهاب، العدد ١، الجزء (١٠)، السيد محمد رشيد رضا فقيه العلم، شوال ١٣٥٤هـ = ١٩٣٦م.

ابن باديس سلفيٌّ ، وقد نعته الشيخ الجاسر بالمصلح السلفي أو نحواً من ذلك ؛ ذلك أن ابن باديس رحل إلى الحجاز مرتين وهناك تعرّف على المفكرين والعلماء الذين تأثروا بدعوة الشيخ محمد بن وهاب من نقاء العقيدة وصفائها ومحاربة البدع والاستمسك بالإسلام دون وَهْنٍ أو خَذَلٍ ، ولذلك كان شعار مجلة "الشهاب" "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها". وتتجلى سلفية في تحرير مصادر التلقي عند تعليم الطلبة ، فلقد ركّز على تعليم الناس القرآن والسنة في دروسه اليومية ، فقد فسّر القرآن الكريم كله وشرح موطأ مالك خلال خمس وعشرين سنة ، وكان من سلفيته الإصلاحية أنه لا بد من نشر العلم بالدين وربط الناس باللغة العربية ، وأن التوسع في العلم ليس بالتعمق فيه إلا للمتخصصين ، بل يجب أن يتوسع تعريف الناس بدينهم وبالفكر الصحيح.

الجانب الأخلاقي عند ابن باديس: يقوم المنهج السلفي على أصول ، منها: الأخلاق ، ولما كان ابن باديس من المصلحين السلفيين ، كان من الضروري أن نقف على بعض ملامح أخلاقه ومنها:

(١) التواضع والتقشف ، حيث كان إلى العامة أقرب.

(٢) الحلم والتسامح ، حتى إن أحد متعصبة الصوفية أراد قتله ، فلما أمسكوا به عفى عنه الشيخ وصفح.

(٣) الشجاعة والصرامة في الحق ، وقد علا صوته في رباطة جأش في

باريس ١٨ يوليو ١٩٣٦م حينما هدد وزير الحربية الفرنسي (دلاديه) وفد المؤتمر الإسلامي بقوة فرنسا. وأن مدافعها قوية طويلة المدى. علا صوته وقال: "لدينا ما هو أقوى" فتساءل الوزير ما هو أقوى من سلاحه ، فأجابه ابن باديس: "ولدينا أيضًا مدافع أطول؛ إنها مدافع الله!!" ^(١).

(٤) الرجوع إلى الحق متى تبين ، وقد سُئل مرة عن مسألة فقهية ، فأفتى فيها بغير المشهور ، ولما تبين له الصواب رجع إليه ونَبَّه على خطأه ورجوعه عنه في مجلة "الشهاب" ^(٢).

(٥) حسن استفادته من الوقت ، فالرشيد من استغل وقته ونظم عمله في الأوقات ، والسفيه: من أساء التصرف في وقته ، فأخلى وقته من العمل ، واستدل بقوله تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٨] استدل بربط الصلاة بالمواعيت على ربط الأعمال بالأوقات ، وبذلك يضبط الإنسان وتستقر له أعماله ويعان عليها بإذن الله.

(٦) الثقة بالله ، حتى في أحلك ساعات العسرة ، يقول لأحد طلبته "يا بني إن جميع الأبواب يمكن أن تغلق أمامنا ، ولكن بابا واحدا لن يغلق أبدا ، هو باب السماء".

(١) انظر: تفسير ابن باديس (١/١٢).

(٢) انظر: حمداتو، مصطفى محمد : عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ص ٧٥، (د.د).

محاربة فرنسا للإسلام وفرنسة الجزائر : احتلت فرنسا الجزائر ، وأعدَّ الباحثون الفرنسيون في الجيولوجيا والجغرافيا والسكان دراسات مفادها أن شمال أفريقيا لاسيما الجزائر جزءا من فرنسا ، وأعدَّت فرنسا العدة لجعل الجزائر ولاية فرنسية ، فهدمت فرنسا المساجد ، ولم يبق في مدينة الجزائر "مثلا " إلا خمسة مساجد من جملة مائة واثنى عشر مسجدا ، وحوّلت فرنسا بقية المساجد إلى كنائس أو دور إدارية ؛ مثل مسجد "كتشادة" الذي تحول إلى كاتدرائية، ومسجد على تبشني الذي حوّل إلى كنيسة قديسة الانتصار ... وأحرق الفرنسيون المكتبات العامة والخاصة وأشهر ذلك ما فعله الجنرال الفرنسي (دومال) حين أحرق مكتبة الأمير عبد القادر الجزائري بمخطوطاتها وكتبها النفيسة ، كما أغلقوا كتاتيب القرآن ، وتمَّ الاستيلاء التام على أملاك الوقف الإسلامي كله ومصادرته ، أما اللغة ، ففي الوقت الذي أحيت فيه فرنسا اللغات القبلية كالبربرية ونحوها ، حاربت بقسوة اللغة العربية ، بل وضعت فرنسا قوانين محاربة اللغة العربية: فأعلنت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية ، ولا يجوز إدارة مكتب أو مصلحة أو اجتماع باللغة العربية إلا بإذن خاص من قائد المنطقة المعنية ، ومن خالف ذلك: اعتقل أو أعدم.

الجهد الإصلاحى لابن باديس: لقد استيقظ شعب الجزائر بعد احتلال فرنسا الغاشم لأكثر من مائة سنة على منهج ابن باديس (العلمي الأخلاقي (العملي الاجتماعي)، هذا المنهج الذي تسرب برفق بين أبناء الجزائر ، ويالها من

يقظة!! لم تنته حتى كانت الحرب الثانية .. ثم استمر على يد تلاميذه حتى نالت الجزائر استقلالها بعد مقتل أكثر من مليون مسلم جزائري وجرح عدة ملايين!!

بدأ ابن باديس نشاطه العلمي والتربوي والاجتماعي على أساس أن الدعوة إلى الإسلام لا تفرق عن الدعوة إلى اللغة العربية ، فهما قطبا الدائرة في جذب المسلمين الحائرين ومناوأة المحتلين والمغتربين ، ومن هنا ركز ابن باديس على (العلم والعمل والتربية ونفع المسلمين) فأسس مثلاً جمعية الإخاء العلمي بالتعاون مع الشيخ محمد البشير الإبراهيمي سنة ١٩٢٤م وكان هدفها التقريب بين طلبة العلم بالجزائر ولم شملهم وتوحيد جهودهم ، وفي سنة ١٩٢٧م أسس ابن باديس نادي الترقى في مدينة الجزائر ، وكان من أهدافه: تثقيف مسلمي الجزائر وإعانة الفقراء ، كما أنشأ جمعية التربية والتعليم الإسلامي.

وفي مجال التعليم فرق ابن باديس بين العلم الكفائي ، وهو أن تنقطع طائفة من الطلبة لتحصيل قواعد العلم ومسائله ، والعلم العيني ، وهو الواجب على خاصة نفسك ، فإذا احتجت إلى شيء من العلم تعلمته ، وكان فرضاً عليك ، مثل: إذا أردت الضوء ، يجب عليك عينا أن نتعلم كيف تتوضأ ، وكذلك الصلاة ونحو ذلك "ويرى ابن باديس أن: العلم مسئولية ، فالعلماء ورثة الأنبياء^(١). وهم مصدر الهداية والإرشاد ، ومبعث التثقيف والتهذيب ، وكل

(١) صحيح. أخرجه أحمد (١٩٦/٥ ح/ ٢١٧١٥) ، وابن ماجه (٢٢٣) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٧) .

واحد في ناحيته هو: نبراسها في ظلمة الجهل ومرجعها في مشكلات الأمور ،
والعلم مستمد من الرسالة، فعلى أهله واجب التبليغ والندارة والصبر على ما
في طريق ذلك من الأذى والبلاء ، والعطف على الخلق والرحمة^(١).

ويرى أن العلم أمانة عند العلماء ، وهم مكلفون بأدائه لمستحقيه ، وليس
العلم ملكاً لهم يستغلونه فيكتمونه إذا رأوا الكتمان أوفق بمصالحهم الشخصية ،
وينشرون منه ما لا يصادم أهواء العامة ، بل يزيدهم جاهاً لديهم ، ولا أبخس
صفقة ممن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة^(٢).

لقد أثمر جهده العلمي بين أبناء المسلمين حيث بلغ طلاب المدارس
الشرعية أكثر من خمسين ألف طالب ، ومثلها من طلبة الثانوي ، وأقل من ذلك
من طلبة العلم المتميزين ، وكانت هناك لجنة للإشراف على المناهج ومتابعة
الطلبة والمدرسين ، وقد تضاعف العدد بعد ذلك ، كما كان يُرسل الطلبة الناهين
للدراسة بجامع الزيتونة بتونس ، ثم يعودون للمشاركة في هذا الجهد المبارك !

ومع هذا الجهد المتواصل الذي أثمر لا أقول جيلاً بل أجيالاً من المخلصين
الذين أثروا المجتمع الجزائري بعلمهم وأدبهم وأخلاقهم ، هذا الجهد لم يصرف

(١) انظر: ابن باديس، عبد الحميد بن محمد (ت: ١٣٥٩هـ) : تفسير ابن باديس في
مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (١/ ٢٩٦) ، دار الكتب العلمية، بيروت،
لبنان، ط ١ - ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م ، وانظر: آثار ابن باديس (٢/ ٧٠) تحقيق عمار
طالي ، دار الشركة الجزائرية ، ط ١ ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م .

(٢) ابن باديس: آثار ابن باديس (٢/ ٣١١) .

ابن باديس وأبناء مدرسته أن يهتموا بالعمل الاجتماعي النافع للمسلمين فتراه يؤسس معملا للصنائع بمثابة ورش يتدرب فيها الطلاب على مختلف الحرف، حتى إذا ما تخرجوا يسهل اندماجهم في الحياة العامة، كما تم إنشاء ملاجئ للإيواء اليتامى حتى لا يقعوا في قبضة الإرساليات التنصيرية.

إن هذا الجهد العلمي والتربوي والخدمي لم يكن مقصورا على طائفة دون أخرى، لم يكن مقصورا مثلا على الرجال دون النساء، بل وَجَّه أيضا جهده العلمي والتربوي والاجتماعي للنساء أيضا، وكان لهن دورٌ خطير في هذا الباب لكن دون تعدٍ لحدود الله سبحانه!!

* من آراء ابن باديس:

١- الإسلام نظام حياة الإنسان في أي وقت في أي مكان.

٢- كان يعتقد أن العلم وحده هو الإمام المتبع في الحياة في الأقوال والأعمال والاعتقادات.

٣- كان يؤمن بالعمل الجماعي وإنشاء حركة منظمة تتولى انتشار هذه الأمة الجزائرية من وهدة الجهل والتنصير والفرنسة، وكانت هذه الفكرة التي ناقشها مع الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في أسماءها سنة ١٩١٣م وكانت أساس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي برزت للوجود سنة ١٩٣١م.

٤- التوسع في نشر اللغة العربية (مع أن أصول ابن باديس بربرية من قبيلة

٥- التركيز على نشر الأخلاق الفاضلة والديانة الواضحة.

٦- التركيز على العمل الخيري.

٧- ضرورة التخلص من الصبغة المذهبية (يقصد في العلم ، وأقول أنا في العلم والعلم الحزبي) لتحريك النزعة الاستدلالية ، كما فعل الشوكاني والألوسي وصديق حسن خان "عليهم جميعا رحمة الله " .

٨- وهو تبع لما سلف: ضرورة تحضير الشعب لغوية وفكريا واجتماعيا وثقافيا وعلميا لنيل الاستقلال.

٩- كن حيث تنفع الإسلام ، ولذلك لما اقترح عليه شيخه أبو حمدان الونيس المجاورة في الحرم المدني أشار الشيخ حسين أحمد الهندي المدني أن يرجع إلى الجزائر لحاجة البلاد إليه.

١٠- وضوح الرؤية في طريق الدعاة ، وألاً يلبسوا في مواقفهم ، فمع اعتراض أبيه وأقربائه عليه في طريقته ومنهجه لاسيما في عدم قبول المناسب الحكومية لدى فرنسا ؛ إلا أنه صبر وصابر ، حتى أنشأ الأجيال التي انتزعت استقلال البلاد عنوة من فم الضبع الفرنسي الخبيث.

من مصنفات ابن باديس : (وكلها مجموع من دروسه وجالسه - جمعت

وطبعت بعد وفاته):

* العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، جمعها وعلّق عليها تلميذه الأستاذ محمد الصالح رمضان.

* رجال السلف ونسأؤه [انظر في هذا آثار ابن باديس (٢١ / ٣)].

* تفسير القرآن الكريم ، جمع أجزاء منه باسم - مجالس التذكير - ونشر بالجزائر.

* آثار ابن باديس في ٤ مجلدات.

* تحقيق كتاب - العواصم من القواصم - للقاضي أبي بكر ابن العربي ، قدّم له وطبعه سنة ١٩٢٨م في جزئين بمطابع الشهاب بقسنطينة.

من شعره ، شعر ابن باديس يفيض حيوية وقوة ، تعكس انتهاءه الإسلامي وحسه الأدبي ، يخاطب أمة الجزائر ، مستنهضا مركزا خطابه على الأجيال الصاعدة:

شَعْبُ الجزائرِ مسلّمٌ وإلى العروبة يَنْتَسِبُ

من قال حاد عن أصله أو قال مات: فقد كَذَبُ

أورام إدماجاً له: رام المُحال من الطُّلبُ

يا نشيئُ أنت رجائونا ، وبك الصُّباحُ قد اقترَبُ

خذ للحياة سلاحها ، وخُضِرِ الخطوبَ ولا تَهَبُ

وارفع منار العدل والإحسان واضدُّم من غَصَبُ

واقلع جذور الخائنين فمنهم كل العَطَبُ

من كان يبغي وُدَّنَا فعلى الكرامة والرَّحَبُ

أو كان يبغي ذلنا فله المهانة والحَرَبُ

هذا نظام حياتنا بالنور خُطُّ وباللَهَبُ

حتى يعود لقومنا من مجدهم ما قد ذَهَبُ

من شهادة أعدائه : قال الكاتب الفرنسي - فرانسيس جانسون - وسجل هذا القول أ/ أنور الجندي في كتابه - الأدب في معركة التجمع والمقاومة - ص/ ٩٣. قال الفرنسي: - إن المعركة الباديسية أحدثت إصلاحاً شاملاً فيما وصل إليه الإسلام بعد تخلصه من التحريف والشوائب التي علقَتْ به نتيجة لتفسيرات المشكوك في صحتها ، حيث تراكمت خلال قرون عدة ، كما عملت على تعميم الثقافة العربية بإنشاء مدارس تتولى تدريس اللغة العربية ونشرها في الجزائر ، مما وقف عقبة في وجه السيطرة الاستعمارية ... كما قاومت [يقصد

المعركة البادية] خطة القضاء على اللغة العربية واستخدام كل سلاح لمحاربة تعليمها ودثر ثقافتها ؛ لتصبح نوعاً من التراث الذي لا يجد مجالاً للبقاء في غير بضع عشر مدرسة من المدارس العتيقة التي تقرأ القرآن.

وفاته: بعد حياة حافلة من الجهد والجهاد توفي الإمام عبد الحميد بن بادسي مساء يوم الثلاثاء ٨ ربيع الأول سنة ١٣٩٥ هـ الموافق ١٦ أبريل سنة ١٩٤٠ م متأثراً بمرضه ، الذي يقال إنه سُمِّ فيه ، ودُفِن في مقبرة آل باديس بقسنطينة الجزائر - رحمه الله - .

لعل في هذه الترجمة ما يكون غنية عن التطويل في ذكر المطلوب ، وتذكيراً لمن أراد المضي في طريق الدعوة عبر واقع يحتاج إلى استعانة بالله وفقه متواصل دقيق ، الله أسأل أن يحمي دعوتنا ودعاتنا وتلاميذنا وأهلنا وأهل مصر من كل سوء ومكروه، وصلى الله وسلم وبارك على النبي محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

*** ** *

«ملاحم لإنجاح خطوات المجد للدين والأمة» (*)

تتواتر الأحداث في أيامنا سراعاً، يسابق بعضها بعضاً، لعل في ذلك حكمة وسنة لا ندرك كنهها الآن، وربما يدركها من سيخلفوننا على الأرض والمنهج، إنهم - آنذاك - سيعلمون ما لم نعلم، ويمضون بمنهجهم على نور من الله! وعندما أكتب هذه المقالات، إنما تكتب لإبصار مواقع الأقدام، وَلَعَوْنِ جيل المستقبل، وهذا واجب على أهل العلم أن يحملوه، وَحَقُّ لهُم أن ينصروه!!

وفقه المرحلة يتسع ليشمل الأزمت المتشابهة، والأحداث المتلاحقة؛ بغية استخلاص الفائدة، وإدراك الحقائق وإبصارها، وتبصير الناس بها، وهذا عمل حَقٌّ لأهل العلم أن يقوموا به - أيضاً - دون كلل أو ملل، دون شطط أو تكلف، دون فساد أو إفساد على أي مستوى من مستويات التفكير أو العمل، أو العلاقات الاجتماعية أو الدعوية... ولعل أهم سمة امتازت بها هذه المرحلة: سمة التخبط^(١)، وهذا التخبط

(*) نشر هذا المقال في العدد الرابع والعشرين من مجلة المحجة البيضاء، جمادى الأولى سنة ١٤٣٤هـ = مارس ٢٠١٣م.

(١) التَّخْبُطُ: صفة من «الْحَبْطُ»، وهذا المعنى اللغوي للمصدر: متصور في السياق، ويُعني به: السَّير على غير هدى وصواب، ومنه قولهم: فلان حَبَطَ الليل؛ أي: سار فيه على غير هدى وصواب، والْحَبْطُ: عَدَمُ الالتقاء بسبب العمى والجهل، ومنه =

الذي تجاوز العامة ليصيب الخاصة، وتجاوز السفلة إلى رؤوس الناس ونبلائهم، وطلبة العلم إلى مشايخهم، هذا التخبط سببه: الإفراط في حسن الظن، أو سوء تقدير وضعية الواقع ومتغيراته، أو الإفراط في الثقة بالنفس، أو الهوى؛ بتحصيل محاب عاجلة، فلا يخلو موضع التخبط عن سبب من هذه الأسباب مفردا أو مجموعا إلى غيره.

ولهذا كان من أهم ملامح هذا التخبط: السَّوْقُ دون القبول بالنصح، وصَمَّ الآذان - بسبب كثرة الجلبة وعلوها - عن سماع الحق، وإعجاب كل ذي رأي برأيه (!!)، والسعيُّ من المتخبطين من فاء إلى رشد، ورجع - بفضل الله سبحانه - إلى دينه وعقله، وقليلٌ ما هم! ولكنهم نادوا على أنفسهم بالأوْب،

=قولهم: فلانٌ يخبط خبط عشواء: يأتي ما يأتي بجهالة وغير تبصّر. وأصل ذلك قول العرب أيضا: خَبَطَ عشواء، والعشواء من الإبل: التي لا تبصر فهي تخبط الكل (أي: تضربهم) فلا تبقي على أحد، ويقولون: فلان يخبط في عمية: إذا ركب ما ركب بجهالة، والخبطة: المرّة من (الخبط). [راجع في ذلك لابن منظور: لسان العرب (٢/١٠٩٣) ط. دار المعارف، مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط (١/٢٢٤)، المعجم الكبير (٦/٤٩-٥٠)].

وواضح أن الخبط تتعلق به معانٍ كثيرة، كلها موجودة في أرض الواقع - ولا حول ولا قوة إلا بالله - فنجد: الكلام في الدين و الواقع على غير هدى أو بصيرة أو صواب، ونجد المشاركات والفاعليات والتغريب بأمة محمد ﷺ باسم «التأويل» عمى عن الحق، أو جهلا بالحق، وأدبى ذلك إلى هذه الخبطات التي تضرب الكل وتؤذيهم، فلا يُبقي أحدا إلا مَسْتَه، كل على حسب حاله - وإلى الله وحده المشتكى وبه الاستعانة - أما سبب الخبط: فهو ما ستجده - أيها القارئ الكريم - بالمقالة، وفقك الله وسددك!

وهذا منهم خير وثوب.

وأيضاً من ملامح التخبط في هذه المرحلة: كثرة النزاع والمتنازعين، وهذا سببه ما قد علمت قَبْلُ، ولكن واضح أن الناس لا تعلم شيئاً عن أنواع النزاع وحكمته وفقهه، حتى هَاكُمُ الذين كانوا يُعِدُّونَ وَيُدْرِّسونَ وَيُدْرِّسونَ في دورات (فقه الخلاف!!)، هكذا على مر السنين، لم يستطيعوا أن يطبقوا ما درسوه، ولا يَعْمَلُوا بما عَلِمُوهُ؛ لأن الواقع فرض عليهم أنماطاً من التعامل (وفق معطيات الحزبية الديمقراطية البغيضة) وجدوا لها باباً متسعاً من التأويل الفقهي والاعتقادي، ما به يصونون أنفسهم عند تلاميذهم ومريديهم! ويحفظون به قطرات ماء وجوههم المراقبة في كثير من المواقف التي لا يحسدون عليها!! وما حملهم على ذلك إلا سبب أو أكثر من أسباب التخبط التي ذكرتها آنفاً! هذه حقيقة يشهد لها واقع العيان الذي لا يكذب ولا يختلف ولا يتضاد؛ ولهذا كان من الضرورة بمكان استحسان النظر في أسباب التخبط؛ لميسر الحاجة إلى ذلك.

لكن يبقى سؤال مهم في هذه الظلمة الدامسة! ما العمل؟ ما المخرج؟ إلى متى سيبقى هذا الوضع؟ الإشكال أن الناس لم يعتادوا أن يفكروا أو يدرسوا أو يبحثوا، لقد ضربت الأُمِّيَّةُ العلمية أَمَّتَنَا، حتى من يُظن أنهم من طلبة العلم، سَلَّمُوا عقولهم وقلوبهم إلى مشايخهم، وجعلوهم واسطة بينهم وبين الوحي ومعرفته.

فلما قامت الأحداث، ووقع الاضطراب والتخبط، حاول المقلدة - كما تعودوا ولا بأس من ذلك أحيانا - الاستئناس بأرباب الرأي والحجى، والدين والفتنة والنهى، فلم يجدوا إلا التخبط أو ركوب متن المخالفة، فصارت المقلدة بين شرين كلاهما وبيل: إما أن يسيروا في مركب المخالفة ظن السلامة! مُتَحَصِّنِينَ بآراء واجتهادات وتأويلات أربابهم والملا منهم!! وهُم في مركب المُخَالَفة يَقْعُونَ - كثيرا - في الاضطراب والتخبط، ولا يُسَعِفُهُمْ في ذلك إِلَّا مزيد من السقوط المنهجيّ تحت مفهوم «التأويل»!! وإِذَا مَا أَن يَسِيرَ الْمُقْلَدَةُ إِلَى شَرِّ - رُبَمَا ظَنُّوهُ أَخَفَّ - وَهُوَ شَرُّ التَّخَبُّطِ! وَسَبِيهِ مَا سَبَقَ وَذَكَرْتُ!

لقد صار العلم الخليّ عن الفهم: لَا يُعَدُّ شَيْئًا فِي وَاقِعٍ صَعْبٍ نَعِيشِهِ، كَمَا صَارَ حَسَنُ الظَّنِّ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ وَتَأَمُّلٍ مَشِينًا غَيْرَ مَقْبُولٍ، وَصَارَ الْعَمَلُ مِنْ غَيْرِ خُلُقٍ: فَسَادًا، وَصَارَتِ الدَّعْوَةُ مِنْ غَيْرِ رِسَالَةٍ ثَابِتَةٍ نَبَوِيَّةٍ تَرَاثِيَّةٍ: هَمَلًا وَتَضْيِيعًا، وَصَارَ اصْطِفَافُ الْخَلْقِ حَوْلَ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِيِّ وَمَا يَحْمِلُونَ مِنْ شَذُوذِ الْفِكْرِ وَالرَّأْيِ مِنْ غَيْرِ تَرْبِيَةٍ مَنَهْجِيَّةٍ نَبَوِيَّةٍ سَلَفِيَّةٍ: إِجْرَامًا وَتَفْرِيطًا؛ وَلِذَا نَحْنُ فِي حَاجَةٍ إِلَى هَذِهِ الْمَصْفُوفَةِ الْمُتَرَابِطَةِ؛ لِإِنْتِاجِ وَاقِعٍ أَفْضَلَ، نَحْنُ فِي حَاجَةٍ إِلَى: الْفَهْمِ، وَالنَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ، وَالْأَدَبِ، وَمَنَهْجِيَّةٍ ثَابِتَةٍ فِي الْإِعْتِقَادِ وَالتَّصَوُّرِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَمَلِ، نَحْنُ فِي حَاجَةٍ أَنْ نَمْضِيَ قُدُمًا بِخُطَى ثَابِتَةٍ قَوِيَّةٍ لَا نَلْوِي عَنْ الْحَقِّ، وَلَا نَلْتَفِتُ إِلَى الْمَشَاكِسِ، وَلَا نُهْدِرُ الْأَوْقَاتَ وَالْإِمْكَانِيَّاتِ فِيمَا لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ نَفْعٌ لِلدِّينِ أَوْ الْأُمَّةِ.

وفي النهاية: هنا عدّة ملامح لازمة؛ لإنجاح خطوات المجد للدين والأمة..

الملمح الأول: ألا ننشغل بالغير.

كحال مَنْ يَقْضِي حياته لِيَحْكُمَ على مُخالفيه وينبذهم مرة بالبدعة وأخرى بالضلال، تاركاً أهل الفساد العقدي والعلمي والعملّي! مِنْ شُذَازِ الصوفيّة والأشاعرة والرافضة والعلمانيين والنصارى!! بل: لِيَكُنْ انشغالنا بأنفسنا، وبما به نفعُ الدين والأمة، بمنهج واضح لا يُصارعُ على دُنْيَا، بل يُسابقُ إلى الآخرة والدرجات العُلى، لا يُشاقق ويُعادي من أجل سلطة، أو يُقاربُ ويُوالي من أجل حكم (حتى ولو ذهب مُتأوِّلةً الحاكمية ما ذهبوا وَلِسُوا ما لِسُوا مِنْ أزياء: الدِّيمُقراطية أو الجهاديّة، فالكلُّ يُريدُ السُّلطانَ - ظناً - للوصول إلى تحكيم شريعة الرحمن! لكن هيهات!!) فَإِنَّ الحُكْمَ لله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وينزعه عَمَّنْ يَشَاءُ، وما علينا إلّا إقامة الدين، على منهاج النبوة وهو: الإصلاح والنصيحة.

وَلِيَكُنْ هذا في واقع الحال والعين حتى يُغرسَ الخير في الجيل والأجيال، وتُعَقَّبَ الرسالةُ في الأمة خلفاً بعد سلف؛ حتى تتقدّم الأمة بالرشد، ويشعّ منها نور الحقّ، وعندها تتحرّكُ الأمةُ لإقامة الدين كلّهُ، تقودُها طائفةُ الإيمان المُرَكَّاةُ من النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ لا يضرُّهم من خذلهم حتى يأتي أمرُ الله وهم كذلك»^(١).

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٠).

الملمح الثاني: ألا نغترّ بالغير.

فإنّ هذا الاغترار . بسبب ما يُظنُّ به من علم أو فهم أو خلق - قد يؤدّي إلى غائلة سوء! ما لم يكن صاحبه على المنهج النبويّ سالف الذكر، ثابتا عليه مُقيما، مُعلنا له ناصرا، باذلا له وفيا، يُعلّم ذلك من قَوْلِهِ ومقاله، وحالِهِ وفِعْلِهِ، يُعلّم ذلك من دَلَلِهِ وسمته وهَمِّهِ وهَمَّتِهِ، يُعلّم ذلك من أدبه وتأديبه، وعمله وانفعاله، يُعلّم ذلك من نظامهِ كُلِّهِ واتِّساقِ أنماطِ حياته، أمّا المُضطربُ الذي يروغ في أحوالِهِ كالثَّعلَبِ: يَكِنُّ ثم يَفْرِي، ثم يَكِنُّ ثم يَفْرِي، هكذا دواليك... أعني: يستترُّ ويختفي، فلا يُعلّم ولا يُربّي ولا ينفعُ الأمة!! ثم إذا ظهر: فاه بما لم يعرف! ودعا إلى ما يُنكرُ من غير بحث ولا درس، حتى يصير الناسُ منه في حيرة!!

لا يُمكنُ أبدا أن نعتد للامة - من خلال المنهج النبويّ - إلا طودا شامخا وجبلا راسيا وعِلْما نافعا وعملا صالحا، لا تلويه كلمةٌ مُتأوّل، ولا ينجحُ به موقفٌ مظنون، ولا يجرمتهُ شنانُ قوم أن يقول حقا أو يصدّ باطلا!!

الملمح الثالث: ألا نجفل من بأس المخالفين.

ولو فاقوا قوّة أو عددا أو نظاما أو عدّة أو مالا أو أنصارا أو أعوانا، فهذا كله زائل، فَلَنَمُضِ ولا نلتفت، ومهما علا ضجيجُهم: زادَ ذِكْرُنَا، وإذا اشتدّ مكرهم: اشتدّ بربُّنا يقيننا، فاللهُ ناصِرُنَا.. مولانا.. وكيلنا.. حسبنا.. قال تعالى

- فيمن هم شَرُّ وأعتى وأضلُّ - : ﴿ لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴾ (١١٦) مَتَعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَتَّبِعُ الْمُهَادُّ ﴿ [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧]، فما هم فيه من المكاسب والسَّعة والقوة: إنَّما هو درك العاجل، وإنَّما هو متاع، والمتاع: ما يُعَجِّلُ الانتفاعَ به، وسَمَّاهُ رَبُّنَا «قَلِيلًا»؛ لأنه فاني، وكلُّ فاني - وإن كان كثيرا - فهو قليل، وما هم فيه وعليه: إنَّما هو من الله - استدراج (١)!!

فيا عباد الله: لا تجزعوا ولا ترتاعوا ولا تحزنوا ولا تخافوا، واعتصموا بالله مولاكم، فهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

الملمحُّ الرابع: أوقاتُ الفتن والبلاء هي أوقاتُ مرض الفرد والأمة.

يزدادُ فيها الخوف، فإذا خَفَّ البلاءُ أو فَتَرَتْ (٢) الفِتْنُ: قَلَّ الخوفُ، والخوفُ يستلزمُ الرَّجاءَ؛ إذ لولاهُ لكانَ قنوطا ويأسا، كما قال يعقوبُ لبيته: ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]؛ وَلِذَا وَجَبَ فِي هَذِهِ الْأَوَاقَاتِ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ وَعَدَمُ الْيَأْسِ مِنْ فَضْلِهِ وَنَصْرَتِهِ لِعِبَادِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ، وَلُطْفِهِ وَعَطْفِهِ وَبِرِّهِ بِهِمْ، فعن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ قبلَ موته بثلاث: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ

(١) انظر في هذا للبغوي: «تفسير البغوي» (٢/ ١٥٤) ط. دار طيبة، ولا بن كثير: «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١٩١-١٩٢) ط. دار طيبة، وللشوكاني: «فتح القدير» (١/ ٦٦٩) ط. دار الوفاء، وللقاسمي: «محاسن التأويل» (٢/ ٥٣٦) ط. دار الحديث.

(٢) أي ذهب ذلك المرضُ والضعف.

الظنَّ بِرَبِّهِ»^(١)

وَذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "أَنَّ الْعَبْدَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ رَجَاؤُهُ فِي مَرَضِهِ أَرْجَحَ مِنْ خَوْفِهِ بِخِلَافِ زَمَنِ الصُّحَّةِ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ خَوْفُهُ أَرْجَحَ مِنْ رَجَائِهِ".^(٢)

فَلَا بُدَّ لَنَا أَنْ نَتَيَقَّنَ بِنَصْرِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ وَاعِدٌ لِأُمَّةِ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّ نُورَ الْوَحْيِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَيَعُمُّ الْخَافِقِينَ وَالْأَكْوَانِ، وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نَسْتَمْسِكَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ ﷻ، فَقَالَ: ﴿فَأَسْتَمْسِكَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]

أَنْصَحُ نَفْسِي وَإِخْوَانِي بِالْحَذَرِ مِنَ الْخَوْضِ مَعَ الْخَائِضِينَ، فَهَيَّا بِنَا نَوْماً سَاعَةً، وَهَيَّا بِنَا نُقِيمَ الدِّينِ، وَهَيَّا بِنَا نَنْفَعُ الْأُمَّةَ، وَهَيَّا بِنَا نَغْرُسُ غَرْساً طَيِّباً دُونَ الْمُنَاقِشَاتِ وَالْمُجَادَلَاتِ وَالْمُحَاقَقَاتِ وَالْإِرْجَافِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنْهَاطٍ وَسُلُوكٍ الْوَاقِعِ الطَّارِئِ، إِنَّا نَحْتَاجُ - بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ ﷻ - إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْفَقْهِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

*** **

(١) «صحيح»، أخرجه مسلم (٢٨٧٧)، وأبو داود (٣١١٣)، وابن ماجه (٤١٦٧).
(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى (١/٢٦).

ضرورة محاربة التقليد

دأبت الدعوة السلفية - أدام الله نورها - في سني دعوتها على الدعوة إلى «التصحيح» ، تصحيح عقيدة المسلمين و أفهامهم وأخلاقهم وأعمالهم ، وكان أخطر الأدوار على «التصحيح» : التقليد ، ومن ثم كانت حرب الدعوة على التقليد بلا هوادة ، لم لا ، وقد ذم الله سبحانه التقليد ، وأنه من أسباب نكسة الناس وصددهم عن قبول دعوة الأنبياء قال تعالى : ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ (١١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَانْتِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَانْتِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرَكِمْ كَانَ عَقِيبُهُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٥﴾ [الزخرف: ٢١-٢٥] .

وقد ذكر النبي ﷺ أن من أعظم كفر اليهود و النصارى تقليد علمائهم وأحبارهم وعبادهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، يدل عليه ما ثبت من طرق عن عدي بن حاتم ؓ أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرَّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية وكان رئيساً في قومه، وكان أبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، وأسر المسلمون أخته وجماعة من قومه، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهها فرجعت إلى أخيها ورغبته في الإسلام وفي القدوم

على رسول الله ﷺ، فقدم عديّ المدينة، فتحدث الناس بقدمه، ودخل على رسول الله ﷺ وفي عنقه صليب من فضة، دخل والنبي ﷺ يقرأ: ﴿ اَتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَزْكَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُورُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ [التوبة: ٣١]، قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم... ثم دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام، فأسلم وشهد شهادة الحق...»^(١) الحديث

وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في: ﴿ اَتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَزْكَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] إنهم اتبعوهم فيما أحلوا وحرموا. وقال السدي: «استنصحو الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم؛ ولهذا قال ﷺ: ﴿ وَمَا أُمُورُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١] أي الذي إذا حرم الشيء فهو حرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكمه نفذ^(٢).

وما أجمل ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - : فلا دين إلا ما شرع الله، ولا

(١) حسن. رواه الترمذي (٣٠٩٥)، وأحمد في "المسند" (٣٧٨/٤) رقم (١٩٣٨١)، والطبري، محمد ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ): تفسير الطبري (٤١٨/١١)، تحقيق: عبد الله ابن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب، ط ١ ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م؟ وحسنه الألباني: في "صحيح سنن الترمذي" (٢٩٥٣).

(٢) الحمود: حسن التحرير في تهذيب تفسير ابن كثير (٢/ ٣١١ - ٣١٢) مكتبة الإمام أحمد الكويت، ط ١ - ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

حرام إلا ما حرم الله" (١).

ومن أجل هذا وغيره كان هدي أئمة الإسلام ونبد التقليد، والأخذ بالدليل، ونبد الأخذ بأقوال الرجال من العلماء والعباد والأخذ بالنصوص الثابتة عن الرسول ﷺ والصحابة الكرام مع فهم هذه النصوص في سياقاتها الصحيحة على حسب ما كان عليه السلف الصالح (٢).

وقد قاسينا كثيرا طوال أكثر من ثلاثين سنة لتثبيت منهج العلم والدليل ومحاربة الجهل والتقليد، قاسينا من الجهلة وشذاذ الصوفية والمثولة، وكنا نستعذب هذه المقاساة؛ لأنها نوع من البلاء والمجاهدة والمصابرة، ما شعرنا بشدتها أبدا ولا بأسها، حتى كانت ثمانينات القرن المنصرم، وابتلى السلفيون المتسننون - آنذاك - بالاتجاهات الإسلامية العصبية!! وتقليدهم لأمرائهم ورؤسائهم أفانين تحكى وقصص تروى، كانوا لا يرون بأسا أن يخطئ الصحابي؛ لأنه بشر، أما إذا أسندت خطأ لأحد من رؤسائهم احمرت أنوفهم، ومما يحكى أن الإخواني إذا قلنا له أخطأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقول لك نعم، فإنه بشر يصيب ويخطئ، فإذا قلت له أخطأ عمر التلمساني - وهو مرشده آنذاك - صخب ورمأك بسوء الأدب!! والجهادي تقول له: أخطأ عمر، يقول:

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى (١١ / ٥٥٤).

(٢) انظر شيئا من ذلك عند الفلاني في "إيقاظ همم أولي الأبصار"، وعند الألباني في "مقدمة صفة الصلاة".

لا بأس، وهذا هو المنهج الكل يخطئ ويصيب، فإذا قلت له: أخطأ عمر عبد الرحمن - مفتيهم آنذاك - : احمر أنفه وسمعت ما لا يرضي!!

كنا نقول هذه عصبية مقينة أن يتحول الناس عن تقليد الأئمة الأثبات إلى تقليد من لم يصل بعد إلى (درجة التلمذة الحقة)، ورحم الله شيخنا الألباني، عندما قيل له أنت عالم، فبكى وقال إنما أنا طويلب علم!! كنا ندعوا إلى الاتباع ونبذ التقليد و التعصب وكنا نسعد بمناقشات تلاميذنا، وكنا نعلمهم الأدب الحق، وسيما عند الخلاف، وكنا لا نرى بأسا أن يخالفك تلميذك في مسألة أو عدة مسائل، لا بأس أن ترسل يدك بعد الركوع وبجوارك تلميذك يجعلها على صدره، ولا بأس أن تحرك سبابتك في التشهد من أول التشهد وتلميذك لا يفعل، ولا بأس أن ترفع يدك عند كل تكبيرة في الجنازة والعيدين وتلميذك يخالفك (أو العكس) هذا في عشرات المسائل ... كنا لا نرى بأسا، بل نرى أن هذه طريقة سلفية!!

واستمر الحال حتى أتى رهط ممن يُظنُّ فيهم العلم والخير، جندوا الشباب واستغفلوهم، ومسخوهم، وجعلوهم صورا منهم، تقليدا، وتعصبا، وتأولا، وتجروا، وتهجما، ومخالفات صريحة للأدلة باسم (المصلحة والمفسدة) وباسم (السياسة الشرعية) وباسم (فقه الواقع) وباسم (واجب الوقت) فأجازوا الأحزاب، ووالوا المجرمين، وشاركوا المخالفين لدين الله في هديهم الظاهر - وربما الباطن - وسلَّكوا لأهل العداوة عداوتهم، وبالجملة صاروا عبئا ثقيلا

على الدعوة، وعنوانا سيئا للمنهج، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وأبوا إلا السير في طريق الضباب العفن، وربوا تلاميذهم على السمع والطاعة، ليس للشرع وإنما «للتزام الحزبي والدعوي»!! وعندئذ خلطت الآراء بالشرع والظنون باليقين، وكانت هذه الوقعة هي مقدمة وموضوع ونتيجة «التقليد»!!

إن هذه الصورة العصرية «للتقليد» مرفوضة، وعندما نجد مقلدة السلفية نسخا مكررة لشخص واحد أو لعدة أشخاص!! عندما تجد كل الشباب والشيوخ (سنا) في أحزاب التقليد السلفية الديمقراطية نسخة واحدة للرأس المخالف للشرع (التأويل والتقليد)، والبأس على أهل الحق من مخالفهم (سوء الخلق)، والاستمسك بباطلهم (رفض الحق)، واستحسان ما هم عليه (العُجب)، هذا المربع من سوء المتواصل (المتتالي) لن ينتهي أبدا حتى يأتي الله بأمره!! نعم، لأن هذه الوضعية النشاز في عالم العلم والشهادة: تصادم حقائق الدين وثوابته، وتكرس - لاستمرار بقائها ودفعها ودفعها - إلى تقديس «الدعاة والمشايع» الأدعياء!! هذه الوضعية الرباعية (التأويل، سوء الخلق، رفض الحق، العجب): لا بد من دراستها للقضاء عليها؛ إذ هي في ذاتها مقدمة ضرورية لحتمية ثورة حقيقية، ثورة علمية ومنهجية وتربوية وأخلاقية، وهذا كله للقضاء - مستقبلا - على كهنوت رجال الدين المُسيّسين!!

إن خطورة رجال الدين المُسيّسين: أن تلاميذهم يظنون أنهم فوق البشر - هذا ظن في وعيهم - فرجال الدين هؤلاء هم رجال الدين والدولة، الذين

يفهمون ما لا نفهم، ويدركون ما لا ندرك، ويحيطون بما لا نحيط؛ ولذلك فمهما رأى التلاميذ من الهزائم، والتناقضات، والاضطرابات، والمذكرات التفسيرية لتلبس المواقف الباطلة وإلباسها فراء الشرع!! فلا بأس عند هؤلاء التلاميذ في تمرير هذا الركام جميعه وقبوله؛ لأن هذه الآراء - حتما - هي نتاج فكر المشايخ وأبحاثهم ودراساتهم ومشاوراتهم وخبراتهم وتجاربهم، وما علينا إلا السمع الطاعة فقط، والتنفيذ لما يطلب منا فقط، إننا لا نرى، وإذا رأينا لا نفهم، وإذا فهمنا لا نعمل حتى يأتي التوجيه والقرار من رجال الدين المُسيّسين!!

إننا في الحقيقة في أتون لا ينتج إلّا نارا محرقة، تحرق دعوتنا، وتحرق علاقتنا بالناس، إن هذه المنهجية من دمرطة - من الديمقراطية - الدين والدعوة والعلم لصالح الحزب، ثم خلط ذلك بمصلحة الإسلام، ثم خلط ذلك بمصالح العباد والبلاد، ثم تدريب التلاميذ على ذلك، وجعل الولاء والبراء لهذا (الهراء العظيم)، إن هذه المنهجية سالفة الذكر لا تستقر إلا بمرجع السوء السالف (التأويل - سوء الخلق - رفض الحق - العجب)، وعندها يصير من الضرورة جدا نبذها ودفعها وتجريم الدفاع عنها؛ لأنها تفسد جيلا، وهو مما يستدعي مزيدا من الجهد والتعب والمعاناة، حتى لا تزيد المعاناة: لابد من دفع ذلك، والتقرب إلى الله تعالى ببغضه والتنفير منه، وهذا من فوائد تأمل الواقع المرير، وهذا شيء من فقه المرحلة!! والله الموفق.

فتاوى أهل العلم بجواز المشاركات السياسية (قراءة تأملية في ضوء قواعد وروح الشريعة)

يحظى أهل العلم في كل زمن بمكانة عظيمة في نفوس الأمة، فهم المبلغون عن الله ﷻ، وعن رسول الله ﷺ، وعنهم تصدر الأمة في آرائها زمن النوازل وحصول الفتن، لكن في الوقت نفسه لا ينبغي أن يقصد العالم أو أن تعتقد عصمته، فلربما كانت خبرته بالواقع المخصوص المحكى عنه قليلة، وربما ضاق وقته عن دراسة المسألة النازلة، وربما ارتج عليه في فهم الدليل أو في صحة تنزله، هذا كله وارد، وليس بقادح أبداً في حب أهل العلم واحترامهم، والاعتقاد بفضلهم وميزتهم، هذه المزية في كل مكان وفي كل زمان، على حسب رزق الله ﷻ لهم بالفهم والتمكن في العلم...

ولعل من أخطر النوازل التي نزلت بأمة الإسلام في السنين القلائل الماضية، نازلة مشاركة أهل السلطان دنياهم؛ ظنا أننا يمكن أن نقيم الإسلام وننشر العدل عن طريق هذه المزاحمات أو المشاركات التي سميت بـ (المشاركات السياسية)، ولنا أن نعلم - عباد الله، وفقكم الله - أن المشاركات السياسية (في أزماننا): إقرار بالديمقراطية - في حدود المسموح به رسمياً - التي ليس لها علاقة بالإسلام لا في صدر ولا ورد، لا في الأصل ولا فيما يتفرع عنه أو يخرج منه، وبغية هذه المشاركات: دخول البرلمان، وقرار البرلمان بالأغلبية،

ولا يُمكن أبداً أن تُمكن الأغلبية المتصالحة مع الشريعة، هذا إن وصلوا إلى البرلمان!! فيبقى وجود الإسلاميين بالبرلمان إجراء ديكوري، المقصود به: تأنيس الاتجاهات الإسلامية المتشددة (هكذا) بوسائل، أخطرها فتكا: الإقرار بالديمقراطية وأسسها وإجراءاتها، وهي باطلة قطعاً، وقد أمرنا ربنا سبحانه فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

والأصل أن المشايخ الكرام كالألْباني وابن باز وابن عثيمين وغيرهم -رحمهم الله-، وأبقى علمهم حسنة دائمة - لا يرون مثل هذه المشاركات إلا بضوابط وفي حدود الضرورة، وهي: تحقيق المصالح اليقينية وتكثيرها، ودرء المفسدات الحقيقية وتقليلها، وتدور هذه المصالح حول: تطبيق الشريعة، ورعاية مصالح المسلمين، وهذا ما أتت به الشريعة أصلاً، ومن ذلك مثلاً:

تصريح الألْباني ومقبل بن هادي وغيرهما في البيان الذي أصدره في سنة ١٩٩٢م^(١) وفيه: «والانتخابات السياسية بالطريقة الديمقراطية: حرام أيضاً لا تجوز؛ لأنه لا يشترط في المُنتَخَب والناخب الصفات الشرعية لمن يستحق الولاية العامة أو الخاصة، فهي بهذه الطريقة تؤدي إلى أن يتولى حكم المسلمين من لا يجوز توليته ولا استشارته».

(١) نشرته مجلة الأصالة في العدد الثاني بتاريخ ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٤١٣هـ = ٩ ديسمبر ١٩٩٢م ص/٢٢.

أقول: ولعل هذا الجزم من الشيخ الألباني رحمته الله ومن معه بعد أحداث الجزائر المؤسفة في (١٩٨٩م)، فقد كان يرى أن المشاركات لا تجوز، لكن يمكن دعم أقرب المرشحين إلى الإسلام، من باب المصلحة وأملا في تقليل الشر، وفتواه في واقع الجزائر، هي تقريبا فتوى اللجنة الدائمة بالمملكة السعودية برئاسة الشيخ ابن باز رحمته الله ونيابة الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمته الله، وعضوية الشيخ عبد الله بن غديان، ونص السؤال كالآتي: «كما تعلمون عندنا - في الجزائر - لا تريد الحكم الإسلامي، فما حكم الناخب على غير الحكم الإسلامي مع أنه يصلي؟»

الجواب: يجب على المسلمين في البلاد التي لا تحكم بالشريعة الإسلامية أن يبذلوا جهدهم وما يستطيعون في الحكم بالشريعة الإسلامية، وأن يقوموا بالتكاتف يدا واحدة في مساعدة الحزب الذي يعرف منه أنه سيحكم بالشريعة الإسلامية، وأما مساعدة من ينادي بعدم تطبيق الشريعة الإسلامية: فهذا لا يجوز، بل يؤدي بصاحبه إلى الكفر؛ لقوله ﷺ: ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ولذلك لما بين الله ﷻ كفر من لم يحكم بالشريعة الإسلامية حذر من مساعدتهم أو اتحاذهم أولياء^(١)...أ.هـ.

وهذا ما نص عليه الشيخ عبد المحسن العباد - حفظه الله - في شرحه لسنن أبي داود، فقال: «الانتخابات ليست من الطرق الشرعية، وإنما هي من الطرق

(١) فتاوى اللجنة الدائمة، المجموعة الثانية (١/ ٣٧٢)، فتوى رقم (١٤٦٧٦).

الوافدة على المسلمين من أعدائهم، والحكم فيها للأغلبية، ولو كانت الأغلبية من أفسد الناس، أو كان الذي ينتخبونه من أفسد الناس؛ لأنهم ينتخبون واحدا منهم، والحكم للغلبة، وحيث يكون الغلبة أشرارا^(١)، فإنهم سيختارون شريرا منهم، والدخول في الانتخابات إذا لم يحصل من ورائه فائدة ومصلحة فلا يصح.

* فهذا الكلام ونحوه من كلام أهل العلم يلاحظ فيه^(٢) ملاحظات عدة:

أولا: كلام المشايخ مجمل، يعكس التصور الفقهي النظري الذي ينشد تحقيق المصلحة ودرء المفسدة مطلقا، وهذه هي الدرجة الأولى، أو زيادة الخير وتكثيره، وتعطيل الشر وتقليله في درجة ثانية، والمصلحة والخير كله إنعاش الناس بشرع الله سبحانه والاحتكام إليه!!

وسبب إجمال الفتاوى: إجمال السؤال، فالسؤال مجمل غير مفصل إذ لم تبين الأسئلة حقيقة «مصلحة تطبيق الشريعة - ومفسدة أضرار المشاركة»، كما لم تظهر الأسئلة قوى شد الحبل الاجتماعي والإقليمي، ولم تدرس البعد الشعبي واتجاهاته، كما أنها لم تقدم. وهي أسئلة مصيرية متعلقة بواقع الأمة ومستقبلها

(١) وهذا واقع لا محالة إلا إذا تغيرت الأمة، قال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

(٢) قلت: فيه، ولم أقل: عليه؛ لأن هذه الملاحظات ضرورية لاكتمال فهم النسق العلمي الفقهي لفتواهم.

- دراسة علمية عن وضعية المشاركة، الأمر الذي ينبغي به الواقع، لا أن يصير الواقع مُضَيَّباً!! ولو كان السؤال تفصيلاً على هذا النحو: لصارت الفتوى متسقة مناسبة لهذا الواقع، لم يحدث شيء من ذلك مطلقاً، وبذلك صارت هذه الفتاوى مقيدة بظروفها، التي تغيرت بعد ذلك، الأمر الذي يجب معه تغير هذه الفتوى، وهو ما يتضح في الملاحظة الثانية - إن شاء الله تعالى -.

ثانياً: كلام المشايخ في وقائع مُحدّدة، مثل: واقع الجزائر (في حدود ١٩٨٩م)، حيث تصارعت الأحزاب العلمانية والإسلامية، ورفعت الإسلامية مشروع «إقامة الشريعة الإسلامية» وحشدت الناس حول هذا، فكان التمايز قائماً على أساس واضح دون ممانعة أو مداخلة في باطل بحجة الموازنات، وأن الخلاف بين الإسلاميين والعلمانيين خلاف برامج لا خلاف مناهج^(١)!! أو كان كواقع مصر سنة ١٩٨٥م، حين تصارعت أيضاً الأحزاب، وحاول الإخوان دخول البرلمان عن طريق الوفد فلم يفلحوا، ثم كان إنشاء حزب العمل ومناداة الشيخ صلاح أبو إسماعيل الشباب وغيرهم لدخوله؛ ليكون سبباً في دخوله البرلمان وتغيير القوانين وتحكيم الشريعة، وبالفعل تدافع الشباب إلى هذا الحزب - باستثناء الشباب السلفي - ودخل الشيخ صلاح أبو إسماعيل مجلس الشعب في دورتين ١٩٨٥م، ١٩٩٠م. وهذان مثالان للمشاركة السياسية في ظروف

(١) كما ادعاه السلفيون الديمقراطيون بمصر بعد أحداث ٢٠١١م - وإلى الله تعالى المشتكى!!

مناسبة، أما واقع الكويت، فالأمر مختلف؛ إذ المجتمع تحكمه تقاليد بعيدة الزمن، والممارسات السياسية هناك تقارب الشريعة الإسلامية في شيء كبير، فهذا واقع لا يقاس عليه.

وإذا نظرنا إلى هذه الوقائع، نجدها قد اختلفت وتغيرت، فواقع الجزائر، انتهت المشاركة ببحار الدم، وواقع مصر: انتهت بتجميد مسودات تقنين الشريعة الإسلامية، ونكوص النواب عن وعودهم وعهودهم في مكة، حين تعاهدوا في بيت الله الحرام في حضرة الشيخ صلاح أبو إسماعيل - أن يقوموا بتطبيق الشريعة، الأمر الذي ترتب عليه إعلان الشيخ صلاح أبي إسماعيل أنه أخطأ الطريق إلى البرلمان - في ظنه أنه سيكون طريقاً إلى تطبيق الشريعة! واستقال الرجل قبل اكتمال دورته الثانية من البرلمان المصري، وواقع الكويت: مع أنه لا يقاس عليه، إلا أن الاتجاه الإسلامي مُني بخسارة فادحة، وأصيب بالتشرذم والاختلاف، وتجراً الرفض عليه، وصار في حكم المنبوذ سياسياً بعد أن كان طليق العمل السياسي!! وصار ما قَدَّمَ من مصالح محدودة تائها في جملة المفاسد الوبيلة!! وسيأتي الكلام عن بعض ذلك بعد قليل - إن شاء الله - .

وعليه، فإذا كانت الفتوى تتغير بتغير الأحوال والوقائع، فإن الوقائع في بلاد المشاركة السياسية في ديار الإسلام (وأقول في ديار الإسلام) قد تغيرت، فقد ظهر - يقينا - فساد هذه المشاركات السياسية، مما أوجب - مترتباً عليه - تغير هذه الفتوى المجيزة، وهذا منهج العلم!! وهذا ما حدا بالشيخ الألباني -

أبقى الله علمه نافعا - أن يقرر بعد تجربة الجزائر حرمة المشاركات - كما سبق وأشرت -، وكذلك الشيخ عبد المحسن العباد، والشيخ الفوزان (فيما نقله الناقلون وهو صحيح مُخَرَّجٌ على قواعد أهل العلم)، ولو أتيح لأحد سؤال المشايخ كابن باز وابن عثيمين لأجابا بما هو صحيح على أصول قواعد أهل العلم [تغير الفتوى - النظر في ماهية المصلحة والضرورة - ذم التعصب والتقليد الأعمى...].

ثالثا: هل يجوز قياس فتوى على فتوى؟ ذلك أن الفتوى اجتهاد، فهل نجعل من اجتهاد بعض أهل العلم وأفراده - في واقعة ما - أصلا شرعيا نقيس عليه؟ أقول: لعل هذه المسألة متنوعة، فربما صح القياس (وهذه نواذر علمية) وربما لا يصح، ولعل المعيار - لا سيما في مسائل النوازل - في ذلك: يقينية السبب وضرورية الوصف المناسب؛ إذ إن ظنية وإيهام السبب الجامع أو الوصف المناسب يجعل القياس لاغيا باطلا، ويعرف هذا من قرائن الأحداث والوقائع، من ذلك:

* أجاز أهل العلم الجهاد ضد الروس في أفغانستان في الثمانينات، والعلة أنهم كفار محتلون لديار الإسلام! أترانا نجيز حاليا قتال أثيوبيا؛ لأنها دولة كافرة احتلت ديار الإسلام في الصومال مثل: (أوجادين)؟! قد يصح هذا نظريا، لكن عمليا لا تصح هذه الفتوى، ومثله: إعلان الجهاد ضد أسبانيا والبرتغال، فهما دولتان كافرتان محوتا الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلس)، لا يمكن أن تصح هذه الفتوى عمليا!! فهذه الأوصاف المناسبة التي تمثل العلة الجامعة بين الأصل والفرع هناك عوامل تؤثر فيها وتمنع من إيقاعها؛ وبذا فإن

هذا القياس يكون لاغياً، ويكون من باب العبث والهذر.

* أما إذا كان السبب أو الوصف المناسب قائماً على مصلحة يقينية وضرورة لا ترد، فإنه يجوز ملاحظة هذه العلة في الوقائع المشابهة، ويمكن القطع بذلك من خلال السياق ودلالات الأحوال، بجامع تحقيق المقطوع به وحصول المصلحة المتيقنة، ومثال ذلك: لو أن حاملاً أصيبت بعد الوضع -بارتحاء الرحم، فمن المقطوع به حصول نزيف حاد قد يؤدي إلى الوفاة وقد يترتب عليه استئصال الرحم أو تدخل إسعافي سريع من فريق عمل طبي في تخصصات عدة لا تقوى النساء عليها - عادة النساء - مثل: (الجراحة - أمراض الدم - التخدير...) وبذا يكون من الجواز الشرعي - للضرورة وللمصلحة المتيقنة - الاستعانة بالأطباء الذكور. ومثلها في الشبه والقياس بجامع يقينية المصلحة ووقوع الضرورة التي لا تدفع، لو أن امرأة أصيبت بورم في صدرها، واحتيج إلى استئصاله، أيجوز أن تنكشف على الأطباء الذكور؟ الجواب: جواز ذلك؛ إذ لا سبيلَ عملية لدرء المفسدة وجلب المصلحة إلا بارتكاب هذا المحظور، فيكون ارتكابه بقدر الضرورة، وهكذا في كل نظير.

إنه بمراعاة هذه المعاني الأصولية، واعتباراتها في سياقاتها الحالية والمقامية: تتحقق المصالح المقطوع بها أو تزداد، وتزول المفاسد المقطوع بها أو تقل، وعندئذ يبدو جمال التشريع الإسلامي وروعة القواعد الفقهية ومدى مناسبتها لأحوال العباد في كل زمان ومصر، وعندئذ لا تكون القواعد الفقهية ألعوبة في يد

من يجعلها عجيبة يصنع منها أشكالا عدة، فتبدو القواعد الفقهية مطاطية (أستك)، وجارية على مقتفي الأهواء، وربما سبَّبَ هذا نفرة الناس من شرع الله لأصلا، وهمزهم ولزهم السالكين دربه، فيكون هذا السبيل قطعاً ليس سبيل أهل الهداية، بل هو سبيل أهل الشقاء والغواية، ثم باستمرار الأيام ومع عدم وجود الإنكار: يصير هذا الضغث الفقهي والركام المعرفي علماً يتدين إلى الله به!!! وربما أسموه بأسماء شرعية أطلقوها على مسميات ليس بشرعية، مثل: السياسة الشرعية - فقه الواقع - طبيعة المرحلة ... سبحان الله!!

رابعا: (وهو مشار إليه قبل، لكن أفردته تذكيرا): ضرورة ربط الفتوى بموردها، فعند النظر في فتاوى أهل العلم - حفظهم الله وأبقاهم ورحم موتاهم - كانت في موارد معينة، مثل: الجزائر - مصر - الكويت... وتحليل المشاركات في هذه الدول وغيرها مثل (تركيا) نجد أن المشاركات أُودت إلى مصائب وخيمة باستثناء الكويت إلى حد ما؛ لأسباب مجتمعية حاكمة، لقد كان الشر وببلا بسبب هذه المشاركات، لقد حُلَّت الأحزاب ذات الميول الإسلامية بتركيا، وانقلب الجيش على مؤسسات الدولة، وألقي القبض على زعماء التيار الإسلامي، وتراجع المد الإسلامي وانحسر ولو بنسبة، ثم آل الاتجاه الإسلامي بتركيا إلى إتجاه مدخول مضرب، لكثرة ما داخله من أهواء وبدع!! ولعل هذا ما يراد أن يُجَرَّ إليه الوضع في مصر!!!

وفي الجزائر: انفرط العقد، واستحالت البلاد إلى حمامات دم بعد وأثناء

حرب ضروس لا ترحم، أفنت عشرات الآلاف وخلفت مئات الآلاف من الجرحى، غير ما أصاب الأمة الجزائرية من كره للإسلام وأهله [هذا الإسلام الذي يسميه أهل الديمقراطية الإسلامية - بعد التعديل والتزويق - بالمشروع الإسلامي!!]، وعادت العلمانية تضرب أنيابها وتنشب أظفارها القدرة في جسد الأمة؛ مُحَاوَلَةً ضِعْضُعة ثوابت دينها وصدها عن لغتها وفرض الهيمنة والتبعية للمشروع الحضاري الغربي، وكان هذا الوضع الجزائري دَرْسا يجب ألا يُنسى!! أما في مصر، فقد سبقت الإشارة بما فيه الكفاية...

خامسا: قيمة فتاوى أهل العلم في تأملها والاعتبار بها لا في التعصب لها، لا بد أن نفرق بين العالم وبين فتواه، فيمكن أن يحترم العالم ويُجَلَّ، لكن تنزل فتواه على ما يناسبها، أما أن نجعل فتوى العالم مكونا من احترامنا له، فهذه هي العصية المذمومة والتقليد المرذول، ولقد حَذَّر الأئمة منه، فقالوا: «كل يؤخذ منه ويترك إلا المعصوم ﷺ»، وقول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي وخذ من حيث أخذوا»، فكم مسألة خالفنا فيها بعض أهل العلم مع إجلالنا لهم، فقد خالفنا الشيخ الألباني: - مثلا - في مسألة حرمة الذهب المُحَلَّق، ونرى جوازه، فما الضير؟! لماذا هذه العصية والتقليد المذموم الذي طالما حاربناه ولا زلنا ننكره ولا نقره؟! ومع احترامنا في مصر لعلماء المملكة السعودية إلا أن كثيرا من طلبة العلم - ومنهم بعض مشايخ الحزب الديمقراطي السلفي - أنكروا على علماء المملكة كابن باز وغيره جواز

الاستعانة بالكفار في حرب الخليج وتحرير الكويت ، ولم نر في هذا إشكالا!!
إذا تقرر هذا، فليعلم أن مسألتنا من هذا الباب، فنحن نحترم أهل العلم، لكن
لا نُقَرُّ لهم بما قد يكون غير مناسب للواقع، لا سيما أن الوقائع التالية أثبتت أنها
فتاوى سابقة وكلام مجمل في موارد محدودة، وهذا مفيد في الملاحظة القادمة.

سادسا: النزاع في مسألة المشاركات السياسية، نزاع في المنهج، ليس من باب
الخلاف السائغ، فهو يصادم منهج الأنبياء، ويفسد ذات البين، يُجَرِّئ العامة على
أهل الدين، ولا يحقق شيئا من المصالح الضرورية، وإن تحصلت مصالح، فهي
مصالح ليست ضرورية، بل جزئية ظنية... وبذلك وبما سبق : بات واضحا
أن الاختلاف في مسألة المشاركات السياسية - هكذا - بعد البيان والتوقيف:
لا يكون من اختلاف التنوع ، بل هو من اختلاف التضاد ، إنه حق في مواجهة
باطل ، ونور يزاحمه ظلمة ، فأى سبيل أفسد ممن ترك منهج الأنبياء ظانا بوجهه
أن مخالفتهم سائغة ومشاققتهم جائزة!! نعوذ بالله من الحور بعد الكور .

والله نسأل السلامة لنا ولإخواننا وتلامذتنا ومشايخنا وأهلينا وأصحاب
الحق علينا.

الأحد: ٢ شعبان ١٤٣٥هـ

٢٠١٤/٦/١م

تأملات في بعض أحداث ما بعد ٢٥ يناير ٢٠١١

وأثر ذلك في الواقع المصري العرض والأمل

لعل فترة ٢٥ يناير ٢٠١١ وما بعدها إلى الآن وربما بعد الآن بخمس سنين، لعل هذه الفترة مرشحة لتكون أخطر الفترات التاريخية، لا أقول في عمر دولة مصر، ولكن في عمر دولة الإسلام منذ انتقال الحكم من الحسن ابن علي عليه السلام إلى معاوية بن أبي سفيان عليه السلام، والسبب في ذلك يرجع إلى:

١- أهمية أحداث هذه الفترة التي من بعد ٢٥ يناير؛ إذ تمثل هذه الأحداث انقلاباً في الفكر الإسلامي السلفي: الذي يعد أخية الفكر الإسلامي العام وأصله ومنبع الخير والاستقامة والهداية .

٢- أهمية مصر إقليمياً وعالمياً مادة وشعباً ثقافة وخلقاً ...

لقد كانت الروح السلفية - لاسيما الدعوة السلفية المحمدية - هي السائدة في الشارع المصري بحكم عوامل ثلاثة:

أ- ثبات المنهج: فالمنهج السلفي يقوم على أصول ثابتة في: الاعتقاد، والفهم، والأخلاق، والعمل، هذا المنهج الثابت المرن الواسع المقيد القوي اللين المحكم اليسير ... ، كمعيار قبول: أعظم الأطروحات إقبالا وقبولا من

قطاعات المجتمع ؛ لما يمثله من أمانة فكرية ومنهجية وعقائدية، والنفس تواقة دوماً إلى الأتم والأكمل مع ثباته وثبوته وخيره وخيرته؛ إذ هو متصل لما سلف من طريقة النبي ﷺ ومن بعده... فلا تحريف ولا إحداث!!

ب- أصالة نفع الأمة: فالمنهج السلفي يقدم ما يمكن تقديمه من نفع الأمة: قادرين ومحتاجين لوجه الله، لا يريد وراء ذلك شكورا من أحد أو مقابلا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نَطْعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩] فالشكور والجزاء يكون بالقول والفعل؛ ولقد سما المنهج السلفي في هذا الباب أيما سمو، فأهل المنهج ينفعون القادرين بتدوير ما يدفعون عند غير القادرين، فيثاب الأول، وتسد حاجة الثاني، وهذا الوسيط يفعل ذلك لا يريد شكرا ولا جزاء، لا من الأول ولا من الثاني، وإنما يفعل ذلك لوجه الله فقط، وكان ذلك سببا في محبة الناس لأرباب هذا الاتجاه، بخلاف غيرهم ممن يقدم الشيء نفسه لكن يريد المقابل في الانتخابات النقاوية أو البرلمانية.. كان الناس يفرقون جيدا بين هذين.

ج- تدافع أهل الباطل على صاحب المنهج السلفي: فمع هذا الرقي علميا وعمليا ومنهجيا وأخلاقيا، فإن مقابل ذلك اجتماع أهل الباطل على محاربة هذا السلفي ماديا ومعنويا، معنويا: بهمهز ولمزه (متطرف، إرهابي، متشدد، جامد، غير متحضر، عدو النظام والجمال، قصص عن الملتحين والمنتقبات تظهرهم بالأنانيين المتوحشين أو الانتهازيين الجشعين أو المستترين وراء الدين...) أما

ماديا فربما ينقل من عمله، أو لا يقبل في عمل؛ بسبب اللحية أو النقاب أو الحجاب وربما قبض عليه وسجن...، وكان من المألوف دوماً توقيف الملتحين في الطرقات وعلى حواجز الطرق، وربما امتد الاحتجاز لساعات أو لأيام أو لأسابيع!! كان الناس في الشارع يشاهدون ذلك فيتعاطفون مع هذا السلفي الدّين، المؤدب، الخلق، ثابت المنهج، قوي القلب، الذي يجري ليس في هواه ولكن في رضا مولاه، فيعرف الحق ويرحم الخلق، فله دره من رجل أو امرأة!!

كان الناس في الشارع يقدمون أهل المنهج السلفي في المواصلات والشارع وعند البيع والشراء، وكانوا لا يردون شهادتهم ولا يرفضون شفاعتهم ولا يخالفون قولهم، كانوا يرون أن أرباب المنهج السلفي هم أمل الأمة وطوق نجاتها وسر نهضتها، وما أكثر الذين تأثروا بالمنهج السلفي في جانب أو أكثر، لكن تبقى الحقيقة أنه ما من زاوية أو حارة وربما بيت في مصرنا إلا دخله نور هذا المنهج، وكان هذا التوفيق: سببا في تبرُّم بعض من لم يقف على حقيقة هذا المنهج، لقد كان المنهج السلفي نسيما يسري في الأجواء، ودماء تجري في العروق، وفكرا يلهب العمل، ويبعث على الأمل، مع استمساك متين وإيمان عميق، ولقد أعيا هذا المنهج أعداء الدين أن يفصموه أو يقتلوه أو يقتلعوه؛ ففكروا بعد فشلهم في خطط تجفيف منابع الإرهاب، أن يبدأوا خطة تأنيس هذا الاتجاه الوائب الواعد، لكن لم يدروا كيف يفعلون أو يبدأون حتى كانت أحداث ٢٥ يناير ٢٠١١ م.

* ومما يميز فترة ما بعد الأحداث:

١- تأنيس الاتجاهات السلفية المتعددة بوجه تطبيق الشريعة عن طريق إنشاء الأحزاب ذات المرجعيات الدينية (هكذا والله)، الأمر الذي أوقع الاتجاهات الإسلامية في العديد من الارتباكات المرسومة قبل، وهي سنة ماضية في كل من دابر منهج الله، حتى لو كان زاعماً نصرته دين الله! فقد تناحرت الأحزاب الإسلامية السلفية وغير السلفية في:

أ- التأسيس:

فكل حزب رفع مشروع تطبيق الشريعة! ولكن بأي كيفية؟ ومتى سيكون هذا التطبيق؟ أي: الجدول الزمني لهذا التطبيق؟ وما هي الإمكانيات المتاحة لتطبيق الشريعة؟ وهل أنتم صادقون في ذلك أم لا؟ هنا: تجد الإجابات غير واضحة، يروغ أصحابها روغان الثعالب، أو لا تجد حساً ولا خبراً!! لقد تدغدغ وجدان المواطن البسيط، بسبب الخطاب الديني الحزبي! ثم تحيّز هذا المواطن المحب للشريعة! يرى أن الأحزاب كلها تطالب بالشريعة! لكن لا يرى نمطاً واحداً للعمل، وإذا سأل أحداً من الديمقراطيين الإسلاميين أرباب الأحزاب قال له: هذه ظاهرة صحية، وإن تعدد الأحزاب الإسلامية دليل على الشراء، وهذا مفيد في إشباع وتعميق العملية الديمقراطية!! ما هذا؟!!!

ب- الممارسات:

فالممارسات الحزبية الإسلامية أظهرت أن المشروع الإسلامي (هكذا!!) في خطر؛ إذ لا يوجد تنسيق فاعل حقيقي، وإن حدث فهو تنسيق تكتيكي طارئ ريثما ينتهي الظرف، ثم تعود (ريمة إلى عاداتها القديمة) رأينا هذا جليا في كل الممارسات الديمقراطية الإسلامية (إخوانية/ سلفية) ولننظر إلى انتخابات البرلمان في (٢٠١٢)، ثم انتخابات الرئاسة اللاحقة لتقف على الفجيرة وعظم الكارثة والله المستعان.

ج- الأمل:

لقد صار أمل الأحزاب الإسلامية بعد المطالبة بالشرعية: تطبيق الشريعة، لكن لم يتقدموا خطوة عملية واحدة في هذا الاتجاه؛ لأنهم للأسف طرّقوا باب الديمقراطية؛ إذ لو طبقت الشريعة من خلاله لأتت شريعة توافقية لا ترضي الله سبحانه، ولكنها سترضي كل الأطراف العلمانيين والنصارى وغيرهم... ولو سألت أحدا من إخواننا المشايخ (سأعهم الله!!) لأجابه هذا هو المتاح وهذا أفضل من لا شيء، وهذه خطوة أولى، وهذا أقل المفاسد، وغير هذا من العبارات... بل تراه يستدعي بعض المتشابه من النصوص؛ ليدلل على فهمه العجيب الذي جعله بعد ذلك هو عين السياسة الشرعية التي تدل على نماء الشريعة ومرونتها!!

٢- مما يُميز هذه الفترة: تعالي أصوات كل المخالفين للإسلام كل على حسب طريقته: وهذه نتيجة مترتبة على ماسبق، مهيجة معززة للاتجاه السابق، وهؤلاء المخالفون:

أ- الكنيسة:

كانت الكنيسة قبلُ تقوم بدورها في الجانب الديني حتى كان عصر السادات، وتولى الأنبا شنودة كرسي الكنيسة، عندها صارت الكنيسة في مقابل الدولة، ودخلت الكنيسة في دائرة تعميق الهوية النصرانية (مهيضة الجناح بمصر!!) الأمر الذي أدى إلى كثير من الاحتكاكات بين الدولة والكنيسة لا بين الرئيس والبابا، وهنا تركّز الصراع ليكون صراعا مؤسسيا لا شخصيا، ومن هذه اللحظة صارت الكنيسة الحاضر دوما في كل المناسبات والأزمات والصراعات.. وتجاوزت الكنيسة دورها لتصير سهما رائشا في كبد الدولة في عهد شنودة ثم عهد خليفته (تواضروس)!! إنها مهيضة الجناح؛ ولذا كانت المطالبة بحقها من أنياب النظام المصري!! إنها دُعوى المظلومية التي أرادوا أن تُصدّق، ليجنوا ثمارها: وضعية دستورية جديدة للكيان النصراني في مصر المسلمة، ويمكن أن نتأمل ما جنوه في هذا الدستور العلماني الجديد!! وقد بينت ذلك في كتابي (إمالة القدور.. قراءة موضوعية شرعية للدستور) إنهم قد حصدوا ما يريدون ثم انصرفوا من التأسيسية معترضين!! إما طلبا للمزيد وهذا شأن الضباع الجائعة، وإما لغرز الإسلاميين لاسيما السلفين لقبول هذا

الدستور الذي اعترضت عليه الكنيسة وعندها يقوم المشايخ الفضلاء بجر
عربة الدستور!! وهذا ما حدث بالضبط، والله المستعان.

ب- العلمانيون:

سواء كانوا علمانيين وجوديين وهم الذين يرون الحرية المطلقة دون التقيد
بالدين، وهؤلاء من أخبث الناس وأعظمهم شراً وخطراً، أو كانوا علمانيين
سياسيين وهم يرون فصل الدين عن نظام الحكم، ولا بأس عندهم أن يكون
الدين كالعرف الاجتماعي! وإن كانوا أهون شراً من القسم الأول، لكن كلا
القسمين يعادي الإسلام كنظام أو منهج حياة أوجده الله سبحانه وارتضاه،
ولا خيرة للناس في قبول أو رفض منهج الله، إنَّ (منهج الله) عند هذه الطائفة
مثله مثل التقاليد والأعراف؛ لذلك لا يلقون له بالاً ولا يعتبرون بأحكامه
ولا قيمه، بل يفسرون تمسك المسلم بدينه بالتفسيرات النفسية أو الاجتماعية
الموغلة في السفسطة!!

وبهذا يمكن تفسير هذه العقلية الحقودة التي تريد أن تدمر التراث والإرث
الثقافي والمعرفي للأمة بزعم الاجتهاد!!

يريدون أن يقطعوا ما بين الخلف وأسلافهم بزعم التجديد!! هذا التجديد
الذي لم يقتصر على النبلاء والأفاضل من أسلاف الأمة، وإنما تعدى هذا ليصل
إلى الطعن في النصوص الشرعية!! ثم التسور على محراب العلم لمصاولة الأئمة

والفقهاء!! وهيهات أن يبلغ الثرى الثريا، أو أن يتحول بعد خسيس إلى جوهر نفيس!!!

إن هؤلاء شرهم وبيل لاسيما العالمون منهم، وهم دوما طابور يعمل في ظهر المسلمين، ونُصِّلُ مسموم في خاصرة جسد الأمة، ولا يمكن للأمة أن تنهض أبدا ما كان هؤلاء على فكرهم وفسادهم!! إن من أعظم الواجبات: أن ننصح هؤلاء بالدعوة وجلسات النصح وحلقات الحوار والنقاش، لا بد أن نحاورهم وأن نصصح أفكارهم المغلوطة المشوشة، وأن نطلب منهم أن يتبرءوا من كل ما يخالف الإسلام وأن يتوبوا إلى الله توبة نصوحا!! لا أن نتوافق معهم ونقول إننا نريد أن نبني المستقبل! وليس معنى هذا أن نرفع السيف في وجوههم ويزعق اللسان بطعنهم وسبهم، لكن يمكن أن يحدث ما أشرت إليه بألین لفظ وأرق أسلوب؛ رغبة في إصلاحهم وهدايتهم والأخذ بأيديهم إلى طريق الله... إلا من أبى وعاند واستكبر فإنه كعبد الله بن أبي بن سلول وإخوانه!!

ج-الرافضة:

إنهم الفريق الذي يركض بشدة ليحجز مكانه في فترة ما بعد ٢٥ يناير ٢٠١١م، وهامهم أعلامهم وأشخاصهم في المظاهرات والميادين محاولين جاهدين إنشاء حزب لهم، وفي غياب العيون الساهرة من طلبة العلم وأهله، وهم حرس الحدود - وهو تعبير حبينا الشيخ أبي إسحاق الحويني - انتشر

رافضة مصر، وهم قلة قليلة، معهم رافضة إيران الذين أتوا مصر بجوازات سفر عراقية، ومعهم الرافضة النصيريون الفارون من سوريا، يؤيدهم بعض شذاذ الصوفية ممن أذهب به كرهه المنهج السلفي إلى أن يرتقي في أحضان أعداء الإسلام!! لقد اجتمع هؤلاء وصاروا يطالبون بحقوقهم المدنية التي نص عليها الدستور الشائه الجديد، وظني أن رقايا عاليا في العلاقات المصرية الإيرانية سيكون دافعا قويا لهذه الطائفة المارقة؛ كي تحاول التمدد والانتفاش في المجتمع المصري دينيا واجتماعيا وثقافيا وخدميا، أكرر، يمكن حدوث ذلك في غياب العيون الساهرة من طلبة العلم والغيورين على منهج السلفية المحمدية!!

د- الرعاع من المنحرفين أخلاقيا:

وهم طائفة البلطجية وأرباب السوابق والمخدرات والآداب، لقد انتشروا بالآلاف في كل طريق، وامتد شرهم إلى كل مكان، وطالت أيديهم كل شيء، وطار شرهم كل مطار، حتى وجدنا كثيرا من المشاكل لا يحسمها إلا هؤلاء، فهم يجعلونها حربا عوانا وفي الوقت نفسه يجعلونها سلما رخاء!! ومن أعظم من نزلوا من أعين هذه الطائفة وخاطرهم: طائفة الشيوخ، كما يقولون بلغتهم، فلقد تبدل كل شيء تماما، من الاحترام إلى التجرؤ والسفه ومن التقدير إلى الهمز والسب... مع قلة الحيلة، وهذا مشاهد واضح لكل ذي عينين!! والله المستعان!

٣- الضعف المجتمعي العام:

لعل هذه الظاهره تكون طبيعة ما بعد سقوط الأنظمة! لكن الواقع يرفض هذا التعليل، فلقد سقط نظام ملكى بمصر وأتى نظام جمهوري، وكانت البلاد مستقرة في أعرافها وأخلاقها وأرزاقها وخيراتها وكنوزها، وحدث هذا في بلاد كثيرة في الشرق والغرب وما دول أوروبا عنا ببعيد!! إن ما يجرى في مصرنا الآن - ونحن أخبر بها نرى ونعلم - لا يمكن أن يتصور نظيره! لقد وصل الضعف المجتمعي - وإن بدت بعض الجوانب أشد سوءا - إلى مدى غير مسبوق في مثل:

أ - الرعاية الصحية وجانب الخدمات العامة : (الصرف الصحي - القمامة - الطرق - الوقود...)

ب - الجانب الاقتصادي: فلقد تأخرت الصناعة، الزراعة، وتدهور الجنيه المصري وتدنى مستواه أمام نظيره الأجنبي، وضعف الاستثمار المحلى والدولي، واستمر هروب الأموال وسحبها من البنوك إلى الداخل وربما إلى الخارج، وازدادت البطالة، واضطرب الميزان التجاري، وعظم الاقتراض أكثر من أي وقت مضى.

ج - الجانب الأمني : حيث تدهورت أيضا منزلة رجال الأمن وتجراً عليهم المواطنون، وصار رجال الأمن يؤدون خدماتهم وفق ما يريدون لا وفق رسالتهم، إلا من رحم الله! وازداد سوء في الجهاز الأمنى بسبب تعدد

اعتصامات بعض رجال الأمن !! وتعدد ولائاتهم !! ومطالباتهم باستحقاقات
ربما لا تكون مناسبة !!

د - الجانب التعليمي: حيث لم يرتبط التعليم بأهداف الدولة، رغم أن الدولة لم تكتمل بعد، فمنذ ١٩٥٢م والدولة لم تكتمل، وظني أن الاكتمال عندما تبني الدولة منهج الإسلام الرشيد، وعندها يتحقق الأمل والخير - كما سنبين إن شاء الله - وبهذا صار التعليم سائرا بحركة القصور الذاتي لقطار التعليم السابق لا يتخطاه !!

ح - الجانب القضائي: لأول مرة في تاريخ مصر يحدث هذا الشقاق، ويكون هذا البون الشاسع بين النظام - في ظل حكم الإخوان - وبين القضاة، فمهما تعددت الأسباب، ومهما كانت الظروف، فإن القضاة: هم صمام الأمن الاجتماعي الداخلي، والملاذ الآمن لكل المواطنين، لكن حدث ما لم يكن في الحسبان من: اعتصامات القضاة وتكوين الأحلاف، والدخول في المهاترات والتجرؤ على القضاة... مما أضعف هبة القضاء، ونال من شرفه وهذا له آثار وخيمة وعواقب كارثية ما لم يتدارك هذا القصور.

هـ - الضعف السياسي داخليا وخارجيا: فالنظام القوي هو الناجح في تحقيق أهدافه سابق الإعلان عنها، وهنا يبدو ضعف النظام عندما يأتي بأعمال وقرارات لا تتفق وما أعلنه من مبادئ وبرامج !! ومن ذلك:

أ - تخطيط القرار السيادي وخُلفه: يُصدَر القرار ثم يُلغى، ويكون الوعد ثم يُخلف، وهذا واضح في نماذج عديدة.

ب - محاولة استرضاء ما يُظن قوته وإغفال ما يتيقن قوته، فعندما نسترضي طائفة الفنانين والممثلين، ونغفل طائفة أئمة المساجد، أو نغفل طموحات ومطالب المواطن البسيط فإننا نقع في كارثة محققة، عندما نسترضي العلمانيين ولا نسترضي الإسلاميين - وإن خالفونا في الطرح والإجراء - يكون الأمر مستدعياً للقلق والعجب.

ج - الإسراع في بعض القرارات بِنِيَّةِ الحفاظ على الشرعية!! وهذا واضح في مسألة التحصينات الرئاسية ومن بعد ذلك مسألة الدستور.

د - العلاقة المشبوهة مع الكيان الصهيوني الغاشم، وهذا أشهر من علم، لاسيما بعد وضع تلك المادة في الدستور، هذه المادة التي تسمح لليهود ببناء معابدهم والتحاكم إلى شرائعهم، ومما زاد الأمر وبالا دعوة أحد منظريهم ليهود مصر بالعودة.

ر - العلاقة المراد توطيدها مع الكيان الرافضي الخبيث بإيران، وهذا ما سيثمر قريبا فتح السفارات، الأمر الذي سيفتح الباب على مصراعيه للنفوذ الرافضي في بلاد مصر راعية المنهج السني على مدار التاريخ الإسلامي!!

و - المواقف اللاحقة من قضايا العالم الإسلامي: باستثناء موضوع غزة،

فإن موقف إدارة الدكتور مرسي تبدو ضعيفة جدا في تعاطي مشاكل المسلمين، لاسيما في بورما والصين والهند والصومال والعراق.

لقد ترتب على ماسبق: مواقف شعبية واجتماعية ودينية واقتصادية خطيرة أهمها:

١- ضعف الإقبال الشعبي على الإسلاميين لاسيما الديمقراطيين: لقد كان الإقبال طاعيا في الاستفتاء على الإعلان الدستوري في مارس-٢٠١١؛ وذلك بدعم الإسلاميين ودفعهم؛ إذ بلغت نسبة المشاركة ٧٥٪ من القوة الانتخابية، كان نصيب الموافقة (بنعم) أكثر من ٧٠٪ من هذه القوة، أقول بدعم وتوجيه الإسلاميين، لتتدنى نسبة المشاركة في دستور (٢٠١٢م) إلى ٣٠٪ فقط، كان نصيب الموافقة بـ (نعم) من هذه الكتلة الانتخابية المتدنية قريبا من ٦٢٪ !! إن هذا التدني مؤشر مهم ودلالة اجتماعية خطيرة يجب ألا يغفلها الإسلاميون الديمقراطيون مهما كانت توجهاتهم.

٢- انتشار الاتجاهات الإسلامية البدعية التي تظهر كأنها اتجاه إسلامي وسطي معتدل بديل عن الاتجاهات الإسلامية الأنانية (إخوان/ سلفيين) وذلك مثل الاتجاهات الصوفية والأشعرية ... وفي المقابل تنامي اتجاهات الإسقاط الإسلامي والإزاحة (السَّبَّابة، الجاميون، الجهاديون ...) وهذه مسألة لها تداعيات خطيرة!!

٣ - تنامي الاتجاهات المناوئة للمشروع الإسلامي الديمقراطي. لاسيما العلمانيين وأرباب المصالح الآنية، والتغريبيين وغيرهم كثير.

٤ - تدني ووهمية الإقبال على العلم والدعوة، ففي الوقت الذي ضعف الإقبال فيه على العلم، فإن القلة المقبلة عليه تمتاز بالقوة وعظم الهمة والرغبة الأكيدة في تجديد ما اخلوق به؛ نتيجة الممارسات الحزبية العصرية، وهذا يبشر بخير إن شاء الله، أما مدعوه من الحزبيين، فإنهم جعلوا من دعواهم طلب العلم والاهتمام به: مطية لجذب الأجناد وتثبيت الأتباع!!

٥ - خلط المفاهيم لاسيما عند الاتجاهات الإسلامية الديمقراطية، حيث تم الخلط بين النقد والظعن، والعلم والشخصنة، والسنة والبدعة، والبدعة والمصلحة، والتقليد والتقديس، والاحترام والعصمة، والدين والديمقراطية أو الليبرالية أو المدنية (أو غيرها من المصطلحات الوافدة ذات المدلول السياسي والاجتماعي الخاص)، وهذا كله سيشكل بعد فترة قاعدة من أبناء هذه الاتجاهات تتميز بالاستكبار الفكري والتفسخ المنهجي والتهمؤ الديني؛ إذ تضيع معنى المواولة والمعاداة لتحل محلها معنى: الوطن الواحد، والتعايش السلمي الآمن، والتوافق الوطني، والنسيج الواحد، والإشكال أن يتم ذلك جميعا باسم الدعوة وبمرجعيات توصف بالعلم!! وعندها سيكون تغير هذا الوضع المحدث لصالح الدعوة السلفية المحمدية: جد عسير، بل ربما يُحْدِثُ

كثيراً من المصاولة، ولكن كما قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلنَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

٦ - تأسد الأنانية: في الوقت الذي تمر به مصرنا بإعصار اقتصادي ربما لا يُبقي ولا يذر - إلا إذا رحمنا الله تعالى - فإن أرباب الأموال لا يفكرون في إصلاح مجتمعاتهم بوازع الدين المستقر في قلوبهم، بل إنهم يتجهون إلى كنز أموالهم خوفاً من المستقبل، فلا تُدَوَّر أموال المخزون المحلي الاستراتيجي لدى المواطنين بل يزداد الكنز، وهذه مقدمة خطيرة تؤذن بظهور الطبقة الاجتماعية الفاسدة، الأمر الذي ربما يترتب عليه ازدياد الفجوة بين أبناء الملة، مما يرشح بعواقب غير محمودة على المستوى: الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، والتربوي ...

* ويبقى السؤال ما هو المخرج من هذا الضيق؟ ما هو الحل؟

والحل يسير! قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلنَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

تبقى الآية هي المعيار والمنهاج، وهي قوله تعالى بعد ذكر اليهود والنصارى وقبل ذكر المشركين والمنافقين: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ لَوْلَا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٧-١٣٨) إنها آية الفاصلة بيننا وبين كل من خالف ديننا، فلن يوجد بيننا وبين أي ملة أو مذهب فاسد التقاء حتى تحدث المماثلة لنا، ولهذا بات من الضروري أن نفهم هذه الآية، فهي حث على استكمال الإيمان وشعائره وشرائعه، ليستقيم لنا المعيار والميزان الذي به نزن غيرنا، فإن وقعت المماثلة بينهم وبين مانحن عليه من الهدى ودين الحق: صاروا منا وصرنا منهم، قال تعالى مؤذنا: ﴿فَقَنِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢]، وفي السياق نفسه أشار سبحانه إلى معيار المماثلة والتطابق في الدين بالدخول فيه والالتزام بشرائعه وتحقيق الموالاة والمعاداة في الدين، فإن وقع ذلك وقعت الأخوة الإيمانية، سبحانه الله!! نعم قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، لكن ربما لا يستجيب الأعداء لنا بل يجاربوننا ويتولون عن منهج الله، عندها ربط الله على قلوب المؤمنين مينا حالهم عند الإعراض وحالهم عند الاستمسك فقال: ﴿وَإِنْ لَوْلَا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧] وهذا المذكور هو (صبغة الله) أي دين الله، فليس دين الله بالانحراف عن منهج الله بأي زعم كان، وتبني

المسائل غير الشرعية كالمشاركات الديمقراطية الخبيثة، أو تنزيل أحكام الجهاد على غير مظاهرها، هذان السبيلان لم ولن تتبناهما الدعوة السلفية المحمدية، بل إن برنامج الإصلاح والصلاح والأمن والخير والبركة والرباح والسعة والتمكين والفلاح هو: سبيل الأنبياء القائم على التربية والتعليم، التأديب والتزكية، نشر العلم والعمل به.

إن تبني المواقف المقاربة مع أعداء الله ظنا أن هذا مجلب للرزق والأمن والاستقرار وإدارة عجلة البلاد! إن هذا الصنيع فارغ كاسد، لن ينتج إلا الماراة والفوضى والفساد، وضياع البلاد وضلال العباد؛ وعليه فإن برنامج الدعوة السلفية المحمدية الإصلاحية يعتمد على:

١- ضرورة نشر المعاني العقدية في الأمة، وهنا يأتي دور العلم والدعوة والتزكية.

٢- حتمية إيجاد العلماء الربانيين وهنا يأتي دور العلم والدعوة والتزكية المتواصلة الدءوبة.

٣- أهمية التفاف الأمة حول علمائها الربانيين وهنا يأتي دور الدعوة والتزكية.

٤- انشغال الأمة بما ينفعها وهنا يأتي دور العمل الجاد والتزكية.

لقد ظهر أن هذا المنهج هو منهج الأنبياء حيث يقوم على دعائم الوحي، فقد قال سبحانه عن رسالة رسوله ﷺ : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فالتلاوة تتضمن: الإخبار والعمل، فصار عندنا العلم والعمل والدعوة والتزكية، فله الحمد والمنة وله الثناء الحسن أن هدانا إلى الثبات على المنهج - ولم يحرفنا عنه بل صبرنا عليه محتسبين راضيين، أما إخواننا الذين سارعوا في مخالفة المنهج - لاسيما الذين آمنوا بالصندوق والإرادة الشعبية ! فليعلموا أن الديموقراطية إذا أتت بالشريعة!! فإن الشعب سيرضى بالشريعة لأنها من عند الله، وهذا طرح نظري، ولن يتحقق، وإذا أوجده، فإنه عملياً : لن تطبق شريعة محمد ﷺ، بل ستكون هناك شريعة توافقية تشبه شريعة البشر، وعندها سيكفر الناس بهذه الشريعة التوافقية!! وعندها سينهار المشروع الإسلامي الديمقراطي، وعندها أيضا سنكون في مفترق طرق:

إما العودة إلى النبع الطاهر الصافي، وفي هذه اللحظة نكون قد فقدنا رصيда عظيما من الجهد والعرق والمال والوقت والثقة والعلم بل والتاريخ ، وسيكون من الصعب جدا إعادة ما ضاع أو ارتجاعه بل حتي اجتراره!! وإما المواصلة في طريق غير الهداية مقتفين بنيات الطريق، وعندها نكون قد فقدنا إلى الأبد ماقد حصلناه خلال السنين الخوالي...إنني أهيب بإخواني المشايخ

الآن وفورا أن يراجعوا آراءهم وطريقتهم في العلم والفهم والتربية، يأخذوا بأيدي تلاميذهم ومحبيهم إلى الله دون خلط أو تأويل فاسد، والله يمسكنا بالخير ويهدينا إليه وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وضع الأقليات - في مصر - محاولة نزع المكاسب

أشار التقرير الأمريكي عن وضع الأقليات في مصر أن عدد مسلمي مصر يتجاوز ٩٤,٦٪ مقابل ٥,٤٪ للأقليات جميعا (نصارى + يهود + أجناب + روافض + سيخ + بهرة + أحمدية + قاديانية...) وأشارت إحدى التقارير أنه خلال العشرين سنة المقبلة، ربما ينقرض النصارى من مصر تماما ^(١) ... وقفة يسيرة مع هذا التقرير نقرأ هذه القراءات:

القراءة الأولى: أن مصر إسلامية؛ فالشعب مُسلم على دين محمد ﷺ ، وإسلامية الدولة بالنسبة إلى إسلام أهلها معتبرة في حكم الديار، فالتتر حكموا ديار الإسلام وتمكنوا من رقاب المسلمين، وكذلك فعل الصليبيون، فما خرجت ديار الإسلام عن حكم الإسلام، بل استمر الإسلام قائما يهدى، وقوة تحمي، وروحا تحفق، وقلبا ينبض، حتى دبت الحياة في الجسد كله، فانتفض الجسد بالإسلام، وحارب المسلمون تحت لواء أمراء الخير والهدى المعتدين الكفار من التتر و الصليبيين، ونعمت الديار بالحكم الإسلامي، ودارت الدائرة على كل منحرف أو زائف، وعاش الناس بالإسلام حكما نورانيا شامخا... وهذه القراءة تَهْدِي إلى القراءة الثانية .

(١) هذا التقرير تابع لمركز (فيو) للدراسات، واشنطن - ٢٠١٠م.

القراءة الثانية: إن إسلامية الشعب خير ضمان للبلاد، فلا يمكن لعدو أن يزايد على هذا الشعب، أو أن يطمع في توجيهه كيف شاء إلا في حالة واحدة: إذا تمّ تغيير بوصلة هذا الشعب لينحرف عن الإسلام: ديننا ونظاما ورسالة ومنهج حياة، عندها يكون الشعب قد أضاع قيمته الحقيقية، وصار تائها وسط دخان الثقافات، وعندها يفقد الشعب أعظم مكون من مكونات كينونته وماهيته، إنه مُكوّن الإسلام؛ الذي أنهض العرب من الخمول والسفول إلى العز والشرف والذكر، إنه المُكوّن الذي جابه به المسلمون أعداءهم، فكسروهم جميعا من: مشركي العرب إلى الفرس والروم إلى الحبش والبربر إلى القوط والفرنجة إلى الترك والتتر والديلم... أمم كثيرة انضوت تحت لواء الإسلام عندما حافظ المسلمون على مُكوّن وجودهم وسر شرفهم وعزهم.

القراءة الثالثة: إسلامية مصر ضمان للإسلام والمسلمين؛ فلو لاحظت الفارق بين الفتح الإسلامي لمصر وفتح غيرها من البلاد، لوجدت الفارق الذي لا يضارع! لقد حدثت فترات التأمل لقبول الدين الجديد الوافد، أما في الحالة المصرية، فقد سارع المصريون جميعا نحو الإسلام، وما هي إلا أشهر قلائل حتى فشا الإسلام في ربوع مصر؛ ومن هذه اللحظة تحملت مصر أمانة حماية الدين وحفظ الثغور في البر والبحر، وانطلقت أول غزوة بحرية إسلامية في البحر المتوسط متحدية البحرية الرومانية العالمية (آنذاك!!)، كانت هذه هي (معركة ذات الصواري البحرية) وكان قائد الأسطول الإسلامي الأول هو أمير مصر:

عبد الله بن أبي السَّرح، وبذا دخل المسلمون في مصر، ومن ثَمَّ المصريون في رباط إلى ما شاء الله، هم في رباط ليحافظوا على دين الله من الغزوات الفكرية والعسكرية، ورأينا ذلك في فتحهم بلاد إفريقيا وبلاد البربر، ورأينا ذلك في صدهم حملات التتر والصليبيين، إنهم في رباط لما يبذلون، مختارين محبين، إن في أموالهم أو في أنفسهم، هم في رباط لما جبلهم الله عليه من كرامة، وحب لنصرة الضعيف، ومساعدة المحتاج، وقد تجلّى هذا في موقف أهل مصر بعد أحداث ٢٥ يناير سنة ٢٠١١م من إخوانهم في ليبيا والسودان والصومال وسوريا، وقبل ذلك موقفهم من الأوضاع المتردية في غزة... هذا كله يدل على خصيصة ربانية لهذه الأمة الإسلامية المباركة... وهذا يفضي بك إلى القراءة الرابعة...

القراءة الرابعة: لما وقف أعداء الإسلام على أحوال مصر وأهلها، أيقنوا أنهم لن يقدروا على ديار الإسلام للنيل من الإسلام حتى يقضوا على الأسد في عرينه، ومن هنا كانت الهجمات العسكرية الشرسة على مصر طوال التاريخ الإسلامي، كانت الهجمات برا وبحرا.. فمن تملك مصر تملك ساري البلاد، وهذا هو عين ما فكر فيه نابليون عند احتلاله مصر في القرن الثامن عشر الفات!! وهو السبب الذي جعل انجلترا تجتهد في إفشال المشروع الفرنسي الطموح في بلاد المشرق، وهو السبب نفسه الذي جعل الإنجليز لاحقا يواصلون جهدهم لدخول مصر، حتى دخلوها غدرا وخيانة سنة ١٨٨٢م، ولا تزال الأطماع جارية على قدم وساق لابتلاع (مصر الإسلامية) أو تقليص أظافرها وتخليع

أنبيائها وأسنانها وضروسها، أو تقزيمها، كل هذه المحاولات تقوم بها قوى مجرمة محلية وإقليمية ودولية، ومنتهى أملهم أن يظفروا بشيء من هذا الكيان المسلم.

القراءة الخامسة: كان من قدر الله سبحانه أن تتعدد الاتجاهات الإسلامية لإقامة الدولة الإسلامية الشرعية في مصر!! ومن أعظم هذه المشروعات ثلاثة^(١): المشروع الجهادي، الذي يرى حتمية المواجهة، وأن بذل الدم أهون من تضييع الشريعة، وأن المسلمين ما داموا قادرين على الخروج فيجب عليهم الخروج، وقد جَرَّ هذا المشروع الولايات على الإسلاميين بمصر بل وخارج مصر. المشروع البرلماني: ورؤيته، أن الحل هو الإسلام، لكن لن نصل إليه إلا عبر صناديق الاقتراع، وعلينا أن نصبر حتى يتحقق الفوز يوما، وهذا الاتجاه: سبب نكسة للاتجاه الإسلامي؛ إذ أضفى بالشرعية على من لم يحكم بما أنزل الله، ولَبَسَ على الناس مفاهيم الدين وقيَم الاعتقاد. ثالثاً: المشروع التربوي، ويؤمن أن العمل من خلال الرأس يلغى قيمة (الشعب)، وفي الوقت ذاته أن العمل الرأسي (جهادي / برلماني) مخالف لسنة الله في كونه وأمره وشرعه، وأن الله ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] وقد تبنى السلفيون

(١) ولم أدخل الاتجاه السبائي، الذي يطبق قواعد جرح الرواة وتعديلهم على المخالفين، ليس بغية نصيحتهم وإرادة الخير لهم، لكن بغية إسقاطهم وإزاحتهم تماماً، وهو اتجاه لا يقل في ضيق عطنه عن المشروع الجهادي ونظيره البرلماني؛ إذ يتميز الجميع بالأنانية والقسوة مع المخالف وعدم تبني خطاب يوجه لإصلاح الأمة ويستشرف مستقبلها، بل هي الزوايا الضيقة!! وإلى الله وحده المشتكى!!

هذا المشروع التربوي، وقامت عليه دعوتهم المباركة (الدعوة السلفية)، لكن عندما قامت أحداث ٢٥ يناير سنة ٢٠١١ م: انخلع كثير من مشايخ وأبناء الدعوة السلفية عن مشروعهم، وانساقوا خلف المشروع البرلماني: وتشتت الدعوة وتمزق الصف، وانكشف العوار، وبدت السوء، وصار ترك الاتجاه السلفي - وهو الأمين حقا على مقدرات البلاد ومصالح العباد - لخصونه من العلم والدعوة والعمل والتربية والتزكية: سببا في جراءة (٤، ٥٪) - وهم الأقلية - للمطالبة بمكاسب مزعومة، فظهرت الحركات النصرانية المتشددة، وظهرت الحركات الرافضية الخبيثة، كما ظهرت العلمانية العفنة، والكُلُّ أسفر عن وجه خبيث يريد أن يحقق أكبر قدر من المكاسب، التي تحقق له (الكيونة) وسط (الشعب المصري المسلم السني)، متوسلين إلى تحقيق ذلك بما يمكن فعله من: الإغراء الاقتصادي - و التخويف الدولي - والتهويش المحلي... وهذا عبر: المقالات - القنوات - الإذاعات - الاعتصامات - الاضطرابات - المسيرات - الندوات - المؤتمرات...

ويبقى الشعب المصري الذي ينتظر كسر المشاريع الهزيلة على حدّ المشروع النبوي الأصيل، والله غالب على أمره، والحمد لله رب العالمين.

المشيخة والمسئولية

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده:

أشخص بصري وأحوله في الواقع منذ ثلاثين سنة أو يزيد، فأرى أسياسا يموتون كالشيخ الألباني والشيخ رشاد الشافعي والشيخ القرنشاي والشيخ محمد الغزالي والشيخ سيد سابق وغيرهم كثير ممن تمتع ناظري بهم، وتأثرت بهم - عليهم جميعا رحمة الله سبحانه - ، ثم يترد طرفي إلى طائفة من المشايخ، الذين عُرفوا - بعد - بمشايخ الدعوة، لم أرهم إلا متحدثين متصدرين، لم أعلم كيف طلبوا العلم وكيف تربوا على العلم؟ ولم أكن أعرف مدرستهم التربوية التي فيها تربوا!! وأسرههم التي منها درجوا، لكن بالاقتراب من كثير منهم، ألفتهم محبين للدين، حريصين على العلم، متوارين في نفع المسلمين، متطوعين حريصين على الخير، لقد كنا ونحن في سن متقاربة (الفوارق السنّية قليلة) : متراحين متقاربين، فمع سبق المراء لكثير منهم علميا ودعويا، إلا أنني أحببتهم، وأخلصت - ولا زلت - لهم المودة وجعلت نفسي فداء لهم ظاهرا وباطنا، وهذه هي الطائفة الثانية من مشيخة بلادي - سلمها الله -

ثم أتت نابتة لا ندري عنهم شيئا، لكنهم بسرعة البرق وبعامل الشهود

الإعلامي، والخلاء الدعوي، والحضور الشبابي - هكذا !! - صارت هذه الطائفة من مشيخة الواقع، صارت لهم الأشرطة والحلقات والندوات والتلاميذ والأتباع، بل ربما يفتخر أحدهم بأنه داعية الشباب !!، وأنه رقم (كذا) في طابور كبار الدعاة بمصر!! بل بعضهم يجعل له طقم سكرتارية!! ويعزُّ ليُعزَّ!! ويؤصل جهده الدعوي في خانة شخصه، فالدين والعمل والجهد والدعوة من خلال ما يرى، ثم إنه كمحاولة للمصداقية الأولية، أو التكتيك: يحك ركبتيه بركبتي أحد مشاهير الدعاة؛ لينتسب إليه ويصدر عنه فهو تلميذه، وهو خلاصة جهد هذا الداعية، وهذا مزكى من الشيوخ الكبار!! وهكذا وبمرور الأيام يكون قد حصل على صك التزكية، وربما قدّم هذا البعض من المتصدرين الأسقف (*) بعض الدعاة وربما أجلسوه مكانه - في سابقة خطيرة!! للدلالة على تمكنه وشرفه!! وهكذا يصعد هذا المسكين ليصير من جملة مشايخ الوقت والمرحلة!! إني أوّمن - جزماً - بأن كل من لم يُربَّ ويتأدب في المدرسة الأولى وهي: البيت، ثم المدرسة الثانية وهي: المعلم والمعلمون في السّني الأولى - أوّمن أنه لن يكون شيخاً، حتى ولو كان صوته يملأ الآفاق، وتلاميذه يطوفون الأرض!! نعم، لقد بدا من كثير من مشايخ الطبقة الثانية في الوقت الحالي بعد أحداث ٢٥ يناير ٢٠١١م كثير من الاضطراب، ولم يقوموا بدورهم العلمي ولا التربوي ولا الدعوي ولا الريادي! تركوا الأمة تنهشها

(*) من كان فيه طول وإنحاء، ومنه أسقف النصارى لأنه يتخاشع، وراجع لسان العرب: (٢٠٤١/٣).

عوارض الأنانية والتسرع والانحدار الفكري والسقوط المنهجي وبيع الإرث المصون بالوهم، بل نزل كثير من هؤلاء المشايخ إلى سفح الجبل ليشاركوا الأمة المهزومة غنائم الوهم، فعلوا ذلك دون بحث أو أناة، بل تسرع وعجلة، وللعجب كان بعضهم يقلد بعضاً!! فيما كانوا قبل ينهون عن التقليد والظن!! ملبسين هذا كله بالإسلام ونصرة الشريعة! ودين الله سبحانه وتعالى ينادي عليهم بالنكران!!

وهنا كان سقوطهم وهم لا يدرون! وكانت انتكاستهم وهم فرحون!! وكان مصابهم وهم شدهون (أي: مشغولون مختارون).

ثم هناك طائفة أخرى من مشايخ هذه الطبقة الثانية، لم يسلكوا مسلك الضباب إلى جحرها، بل اجتهدوا في جمع تلاميذهم على ما يظنون أنه دين محمد ﷺ، لكن بأذهان مختلفة، لقد شرعوا إلى نفص الشباب عن كل من يمكن قيامه في مقام التوجيه، إما بدعوى عقم مصر عن إنجاب أحد ممن يتحمل مسئولية التوجيه، والوقت ضيق ولا صوت إلا صوت قعقة السلاح؛ لأن الرصاص أصدق إنباء من الكتب!! وفي المقابل نجد مشيخة الإسقاط ودعواهم المتسطيرة... فمصر قفر بعلمائها! ودعاتها ذبحتهم البدعية والضلالة! ولا ثمت إلا هؤلاء في أفكارهم وأوهامهم!! إن هذه المشيخة الجهادية والسبائية: هي مدرسة واحدة من حيث المنزع والمبتغى، هي مدرسة إسقاط الغير لا نصيحته والأخذ بيده، أو على الأقل الدعاء له بالهداية والترفق به بغية الهداية المضمون بها على غيرهم.

ليأتي دور مشايخ الطبقة الثالثة، وهم أقل ضعفاً من طبقة أساتذتهم، لكن سأخص بالذكر متصدرة الديمقراطيين؛ وذلك لشهرة كثير منهم حسب ما ذكرت من المقتضى، وتمتاز هذه الطبقة النابتة بأنهم أقل حظاً في العلم والتربية والتحصيل والعبادة والإيمان، ما كان أمامهم إلا تقليد من سبقوهم دون وعي ولا إدراك، دون بحث ولا تقصي! لقد كان الواقع - آنذاك - لقمة سائغة، وفرصة لا بد من اهتبالها وعدم تفويتها، بل إن خطابهم - كخطاب أساتذتهم - حثَّ على ديمقراطية الإسلام، وتبشير بالشرعية لكن على أسنة الديمقراطية، ودعوة إلى التظاهرات وأنها جهاد في سبيل الله، وأنه لا يتخلف عنها إلا منافق أو مريض القلب!! وظن هؤلاء المشيخة أن الزمن قد استدار؛ ليجلس عمر في قصر الحكم في عابدين أو في مصر الجديدة، لكن لم يفتنوا إلى أن النبي ﷺ بشر بخلافة في المستقبل، لكنها «خلافة على منهاج النبوة»^(١) ليست خلافة على منهاج الديمقراطية الوثنية العفنة!! لقد كان التردي والانحراف!!

(١) كما في الحديث الصحيح، عَنْ حُذَيْفَةَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاصِيًا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤/ ٢٧٣ ح/ ١٨٤٠٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥).

ومثل هذه المنزلة من نابذة الطبقة الثالثة المخلطين (سلفيين / إخوان) والمتأثرين بهم من الطلبة وأشباههم، نجد نظائرهم من تلاميذ مشايخ الطبقة الثانية من المناوئين، الذين جعلوا كل همهم نشر قيم الحق - كما يرون - والرد على المبتدعة المخالفين - في زعمهم - !! وفي مقابلهم من يرى جمع الشباب في مجموعات لتنفيذ ما يرونه جهادا في سبيل الله !! وأن ما يحدث لهم من أذى واعتساف: إنما هو بلاء من الله واجب الصبر!! وما يحدث لهم من فتح وتقلب في النعمة إنما هو إحسان من الله واجب الشكر! فتالله ما أعجبهم من فتية !! .

إن هذه الطوائف التي أفست الدعوة، وعاثت في الأرض فسادا: لا يمكن قبولها إلا بتوبة صدوق، يرى أثرها في عمل رباني على منهج الأنبياء، لا سيما من تلبس بالحزبية، فلن يُقبل منهم، تركهم الحزب الديمقراطي السلفي ليرتموا في أحضان الحزب الديمقراطي الإخواني ويدافعوا عنه، ويظنوا أنهم بذلك قوالون بالحق، مجاهرون بالنصف!!

كما لن يكون من المقبول تشقيق المجتمع بدعوى الجهاد وإقامة دولة الإسلام ! وفي الإتجاه الإزاحي المقابل لن يكون أيضًا من المتصور قبول من ينشغلون بغير المبتدعة الأصليين، بل ينشغلون بمخالفهم من الدعاة وطلبة العلم، هذا كله من الواقع الذي نعيشه !!

من أجل هذا وغيره مما لا يمكن أن يسطر في أسطر، بل يحتاج إلى كتب

وكتب: كانت هذه المقالة، التي سأرتبها إلى الأجزاء الآتية بعد هذه المقدمة:

أولاً: تأصيل معنى المشيخة لغة وشرعا.

ثانياً: تأصيل معنى المسؤولية لغة وشرعا.

ثالثاً: العلم ومفهوم المشيخة .

رابعاً: العلاقة بين المشيخة والمسؤولية .. محاولة لتفهم الواقع .

خامساً: خطة العلاج والعمل .. تصور واقتراح (الخاتمة) .

وليس الشأن ببعض الأدعياء ممن ينصب نفسه حكماً على الواقع وخلاف
الإسلاميين، وهو لا يدري عن الواقع شيئاً إلا من خلال ما يثبته - دون وعي
عن شيخه بالواقع؛ أعني أنت، فلا تجربة ولا سنن متقدمة ولا خبرة بالأحداث
والوقائع، ولا مشروع رباني يقدمه للأمة نفعاً وعملاً ونصيحة، بل هي الجمل
الطائرة التي تصاد، كما يصيد العنكبوت فرائسه، فإلى الله وحده المشتكى!!

المشيخة والمسئولية

معنى المشيخة

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله «تعالى» فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

أما بعد:

من المهم بمكان بيان المصطلحات وتحديد معناها، ذلك أنه في أوقاتنا تلك ربما هوى كثير من الناس بالفاظ لا يضبطونها «تقليدا» تمشيا مع واقع ضاغط أرادوا أن يكونوا من نتاجه ... واخترت كلمة (المشيخة) مع ورودها نصا كما سيأتي ؛ لأنها الأكثر مواءمة لواقع الدعوة ، وما قد يتلبس بها من علم، أيضا ذكرها السلف في تراجم شيوخهم وشيوخ بلادهم أو تراجمهم أنفسهم، من ذلك : مشيخة ابن البخاري : وهو الإمام المسند أبو الحسن علي بن أحمد البخاري الحنبلي المتوفى «سنة ٦٩٠هـ» تخريج ابن الظاهري له وذيله عليه، وهو ترجمة أبي القاسم الحسين البيهقي وعليه ذيل للحافظ «جمال الدين المزي»، وهو ترجمتان: الأولى :- ترجمة عبد المجيب البغدادي، والثانية :- ترجمة الحسن

ابن علي بن البن، ومن ذلك المشيخة البغدادية للشيخ الإمام أبي طاهر أحمد ابن محمد السلفي الأصبهاني المتوفى «سنة ٥٧٦هـ» جمع فيها الجمع الغفير، مع فوائد مالا تحصى جمعتها تزيد على مائة جزء...»^(١).

والمشيخة: - أحد جموع كلمة شيخ، وهنا يتضح معنى كلمة المشيخة لأول وهلة، ونفهم لماذا اختيرت هذه الكلمة من بين أخواتها؛ ربما لأن هذه الكلمة ليست مجرد معنى، ولكنها: - معنى ومظهر، فعل وانفعال، أثر وتأثير، إنها: مجموعة من القيم الهائلة يجمعها رجل ذو خبرة وحنكة عظيمة؛ حيث يتعدى نفع ذاته إلى غيره، ويتجاوز أثره الفرد إلى الأمة العظيمة لا إلى الطائفة المخصوصة، إلا إذا قُيد. وسيتضح ذلك إن شاء الله تعالى في هذا المقال والمقالات التالية.

بعد النظر في كتب اللغة والمعاجم والتفسير وشروح الحديث، نجد أن للشيخ معانٍ محددة، هي:

المعنى الأول للشيخ: من تقدم في السن وظهر عليه الشيب^(٢) ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣] هذا هو المعنى العام المادي للشيخ (سن + شيب)، ومحاولات التحديد السني مختلفة، فمن أهل

(١) انظر لحاجي خليفة: كشف الظنون (٢/ ١٦٩٦) ط دار الفكر

(٢) انظر في هذا الراغب الأصفهاني: المفردات ص/ ٢٧٩ ط دار الفكر، وابن منظور:

لسان العرب (٤/ ٢٣٧٣) ط دار المعارف، والمعجم الوسيط (١/ ٥٢٢) ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

العلم من ذكر أن الشيخ ممن جاوز الأربعين ^(١)، وهو سن النبوة، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [الأحقاف: ١٥] ^(٢) وهو ما رجحه جمهرة من شراح الفصيح، وحكاه ابن سيده في «المخصص» والقزاز في «الجامع»، وكراع وغير واحد ^(٣) ومنهم من حده بتجاوز الخمسين إلى الثمانين ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا ذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [هود: ٧٢].

ولعل المعنى الثاني في التحديد المادي هو الأنسب، فقد رجحه جمع من أهل اللغة - كما سبق - وهو ما يفهم من النصوص والآثار الآتية:

١- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى شيخاً يهادى بين ابنيه، فقال ﷺ: - ما بال هذا؟

قالوا: - نذر أن يمشي - يعني - إلى الكعبة قال رسول الله ﷺ: «إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني» وأمره أن يركب ^(٤)

قال ابن حجر: يهادى: أن يمشي معتمداً على غيره ^(٥) ونقل القاضي عياض

(١) انظر للشوكاني: فتح القدير (٤/ ٦٥٧)، ط دار الوفاء بالمنصورة.

(٢) انظر للقرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٩٦-١٩٧)، ط التركي.

(٣) انظر للزبيدي: تاج العروس (٧/ ٢٨٦)، ط الكويت-١٩٩٤هـ.

(٤) متفق عليه. أخرجه البخاري (١٨٦٥-جزء الصيد) ومسلم (١٦٤٢-النذر).

(٥) ابن حجر: فتح الباري (٤/ ٩٤)، ط. الريان.

عن المازري قوله في حال الرجل يحمل هذا كله أنه عجز عن المشي^(١) ...

٢- حديث ذهاب خوله بنت حكيم (امراة عثمان بن مظعون) لخطبة سودة بنت زمعة (لرسول الله ﷺ) وهذا بعد وفاة خديجة بنت خويلد رحمها الله بمكة وفيه أن رسول الله ﷺ أرسلها، فدخلت على والد سودة قالت: « وكان شيخا كبيرا قد أدركه السن »^(٢) .

٣- ثبوت النهي عن رسول الله ﷺ من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه مرفوعا « ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا »^(٣)، والشيخ الفاني المشرف على الموت^(٤) .

٤ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « قلب الشيخ شابٌ على حب اثنتين: طول الحياة، وحب المال »^(٥)، قال القاضي: والعبارة هاهنا بالشباب؛ عن كثرة الحرص وبعد الأمل، الذي هو في الشباب أكثر وبهم أليق للرجاء في طول أعمارهم ودوام استمتاعهم ولذاتهم في الدنيا. هـ^(٦) .

٥- حديث عطاء بن السائب، وفيه: كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن ابن أبي ليلى، رأيت شيخا أبيض الرأس واللحية على حمار وهو يتبع جنازة، ...

(١) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم (٥/ ٣٩٥) ط دار الوفاء بالمنصورة .

(٢) صحيح. أخرجه أحمد (٦/ ٢١١ ح ٢٥٨١٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٧٣٧- جهاد)، وانظر للخطابي: (٢/ ٢٤٣، ٢٢٨- معالم السنن).

(٤) انظر المعجم الوسيط (٢/ ٧٣٠).

(٥) أخرجه مسلم (١٠٤٦- زكاة).

(٦) القاضي عياض: إكمال المعلم (٣/ ٥٨٢).

وفيه تحدّثه بحديث رسول الله ﷺ « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ... (١) ».

٦- عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: « خرج رسول الله ﷺ على مشيخة من الأنصار فقال: «يا معشر الأنصار - حمروا وصفروا وخالفوا أهل الكتاب -» (٢) ».

وبتأمل النصوص الماضية التي تمثل غيضا من فيض نجد المعاني المادية للشيخ، أنه:

١- شيخ .

٢- شيخ كبير .

٣- شيخ يُهادى .

٤- شيخ كبير قد أدركه السن .

٥- شيخ فان (مشرف على الموت) .

٦- شيخ أبيض الرأس واللحية .

- وهذه المعاني توجد كثيرا من سن الخمسين وما فوقها ، واحتمالية وجود

هذه المعاني أو بعضها فيما هو دون ذلك قائم ، لكن الغالب هو ما أشرت إليه

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٩ ح ١٨٣٠٩).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٤ ح ٢٢٢٨٣).

قبل ، والله سبحانه أعلى وأعلم .

أحبتي في الله هذا هو المعنى الأول لمفهوم كلمة الشيخ أو المشيخة ، وفائدة
سوق المعنى المادي الحسي: حُسْنُ التَّصَوُّرِ للمعاني المعنوية التالية وهذه المعاني
المعنوية للفظ "الشيخ" .

المقال الثاني

المعنى الثاني للشيخ :- بتأمل المصادر نجد أن الشيخ يدل على : من كثر علمه ؛ لما كان من شأن الشيخ أن تكثر تجاربه ومعارفه ^(١) ، وواضح من هذا التعريف الربط بين السن والعلم، ثم إن العلم: ليس علما بالشرع فحسب ، لكن علم بالتجارب والمعارف ، ومما هو معلوم أن هذا النوع يزكو بالسن؛ ولهذا كان الشيخ - دوما - موضع التبجيل والاحترام، حتى يقال شيخه؛ أي : دعاه شيخا تبجيلا». ^(٢) وأيضا يكتفى عن آباء المرء بالشيخوخة ^(٣)؛ لرأيهم ، وحكمتهم، وتقدمهم في السن. ولعل تعريف مجمع اللغة العربية من أوعب التعريفات . حيث نص على أن الشيخ : ذو المكانة من علم أو فضل أو رياسة ^(٤) والمشيخة : فيها معنى الثبوت ، ومنه أشياخ النجوم، قال ابن سيده : هي الكواكب الثابتة، وقال ثعلب : هي أصول النجوم التي عليها مدار الكواكب وسيرها ^(٥).

ولو تأملنا النصوص الواردة يمكن لنا بجلاء أن نربط بين (الشيخ) وبين (العلم - الفضل - الرئاسة - الرأي الحكمة - الثبات - الأصول، ...) ويكون

(١) الراغب: المفردات ص/ ٢٧٩

(٢) انظر في هذا الفيروز آبادي: القاموس المحيط (١/ ٢٦١)

(٣) الزمخشري: أسرار البلاغة ص/ ٢٤٥

(٤) المعجم الوسيط (١/ ٥٢٢)

(٥) انظر للزبيدي : تاج العروس (٧/ ٢٨٨)

اللفظ أدق لو جمع إلى ماسبق :التقدم في السن، ويدل عليه :-

ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه قال :- كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال : لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر رضي الله عنه : إنه من حيث علمتم ... ما تقولون في قول الله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] فقال بعضهم : أمرنا بحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ... ((ثم أذن عمر)) فقال ابن عباس هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له ... فقال عمر رضي الله عنه ما أعلم منها إلا ما تقول^(١)، قال ابن حجر رحمه الله : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر - أي من شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار ، وكانت عادة عمر رضي الله عنه إذ جلس الناس أن يدخلوا عليه على قدر منازلهم في السابقة ، وكان ربما أدخل مع أهل المدينة من ليس منهم إذا كان فيه مزية تجبر ما فاتته من ذلك اهـ^(٢)

وواضح العلاقة بين (الشيخ) و(المنزلة) وهذه المنزلة : مزية عظيمة وشرف لا يضارع، وليس أعظم من شهود بدر مزية ومنقبة وشرفاً؛ لكن يمكن تجاوز هذا وجبره لمن تهيأ له وضع ومزية وعلم ورأي وشرف ورئاسة وتقدم على قومه في الحروب أو في البذل أو نحو هذا والله أعلم ، يدل على هذا الآتي :

حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه : في رؤيا رسول الله ﷺ أن رجلين أتياه فطوّفا

(١) أخرجه البخاري (٤٩٧٠ - تفسير)

(٢) ابن حجر : فتح الباري (٨ / ٧٣٥) ط. السلفية .

به، فكان من جملة ما طاف به رسول الله ﷺ روضة خضراء، فإذا فيها شجرة عظيمة، وإذا شيخ في أصلها حوله صبيان ... ثم فسر ذلك له فقال : أما الشيخ الذي رأيت في أصل الشجرة فذاك إبراهيم (عليه السلام)، وأما الصبيان الذين رأيت فأولاد الناس ... ^(١) فتأمل تلقيب نبي الله (عليه السلام) بـ (الشيخ)؛ لسنه ومنزلته، فليس هناك أعلى وأشرف من أنبياء الله .

حديث التابعي الثقة عثمان بن عبد الله بن موهب التيمي (ت ١٦٠ هـ) ^(٢) قال جاء رجل من مصر يحج البيت فرأى قوما جلوسا ، فقال: من هؤلاء القوم؟ فقالوا : قريش! قال : فمن الشيخ فيهم ؟ قالوا عبد الله بن عمر ، قال: يا ابن عمر إني سائلك عن شيء ... بقية الأثر ^(٣) (وفيه سؤالات عن حال عثمان ابن عفان رضي الله عنه) .

حديث أيوب السخيتاني عن أبي قلابة أن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال لأصحابه : ألا أنبئكم صلاة رسول الله ﷺ قال : وذاك في غير صلاة ، فقام ثم ركع فكبر ، ثم رفع رأسه فقام هنية ، ثم سجد ، ثم رفع رأسه هنية - فصلى صلاة عمرو بن سلمة ؛ شيخنا هذا - قال أيوب : كان يفعل شيئا لم أرهم يفعلونه : كان يقعد في الثالثة أو الرابعة ^(٤)

(١) إسناده صحيح . أخرجه أحمد (١٤ / ٥ - ١٥) ح / ٢٠١٧٧

(٢) ابن حجر : تهذيب التهذيب (٨٦ / ٤) ط . دار إحياء التراث

(٣) إسناده صحيح . أخرجه أحمد (٥٧٧٢) والبخاري (٣٦٩٨) واللفظ لأحمد .

(٤) (أخرجه البخاري (٨ / ٨ - كتاب الأذان ، باب المكث بين السجدين) وقد دندن =

فتأمل قول أبي قلابة رضي الله عنه فصلّى (أي مالك بن الحويرث رضي الله عنه) صلاة شيخه عمرو بن سلمة ، وقوله (شيخنا) : «بدل» ، هذا : «تأكيد» ، والمشيخة هنا : علّم وسن ، فعمرو بن سلمة : أبو يزيد البصري : مختلف في صحبته والصحيح أنه من الصحابة - والله أعلم - . يدل على العلم : صحبته وتحديثه ، ويدل على السن رواية أبي قلابة الجرمي البصري (عبدالله بن زيد) عنه وهو تابعي ثقة كثير الحديث ، توفي بالشام سنة ١٠٧ هـ^(١) ، ومن تلاميذ عمرو بن سلمة أيضا أيوب السخيتاني البصري (وهو أيوب بن أبي تيمة) تابعي ثقة ، توفي سنة ١٣١ هـ فتحصل مما سبق : علو وتقدم سن الشيخ ، وهذا جليّ واضح !!

عن مروان بن الحكم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما طعن ، استشارهم في الجُدِّ ، فقال : إني كنت رأيت في الجد رأيا ، فإن رأيتم أن تتبعوه ، فاتبعوه فقال له عثمان رضي الله عنه : إن نتبع رأيك فهو رُشدٌ ، وإن نتبع رأي الشيخ فلنعم ذو الرأي كان^(٢) .

=ابن حجر في (فتح : ٣٥١ / ٢) حول لفظ «يقعد في الثالثة أو الرابعة» وجعلها شكا ، والقلب لا يستريح إلى ذلك ، والصواب أن «أو» هنا بمعنى الواو ومنه قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات ١٤٧] ، أي : ويزيدون ، على قول الكوفيين ، ومنه قول الشاعر : «جاء الخلافة أو كانت له قدرا» أي : وكانت (انظر في هذا ، المرادي : الجنى الداني ص / ٢٢٩ - ٢٣٠) ط . دار الكتب ، وللقاسمي : محاسن التأويل (٧٧ / ٦) .

(١) ابن حجر تهذيب التهذيب (١٤٨٣ - ١٩٤) ، (٦) انظر لابن حجر تهذيب التهذيب (٢٥١١ - ٢٥٢) .

(٢) إسناده صحيح . أخرجه الدارمي (٢٩١٧) دار المعرفة - بيروت .

قلت: ورأي أبي بكر رضي الله عنه: جعل الجد أباً، ورأي عمر رضي الله عنه: - أن يقاسم الجد الأخ والأخوين، فإن زادوا أعطى الجد الثلث، وكان يعطيه مع الولد السدس^(١) فتأمل على أي شيء كان أبو بكر رضي الله عنه شيخاً عند الصحابة: إنها «السابقة - السن - العلم - الفضل - الرأي - الخلافة...»، فكل من حصل واحدة من هذه كان شيخاً، فما ظننا بمن حاز هذا جميعاً وأكثر!! رضي الله عن الصديق الأكبر وإخوانه من الصحابة الكرام.

حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ اقتلوا شيوخ المشركين واستحيوا شرخهم» قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي عن تفسير هذا الحديث ... فقال «رحمه الله»: الشيخ لا يكاد يسلم، والشاب أن يسلم، كأنه أقرب إلى الإسلام من الشيخ، وقال: الشرخ: الشباب^(٢)

قال الخطابي (رحمه الله) الشيوخ هاهنا المسان^(٣). وقال المبارك كفوري: - «اقتلوا شيوخ المشركين» أي الرجال الأقوياء وهم أهل النجدة والبأس، لا الهرمي الذين لا قوة لهم ولا رأي ... أهـ^(٤) فواضح أن الشيخ هنا هو: المسن

(١) انظر هذا عند الدارمي (مسنداً) ٢٩٠٣/٩، ٢٩١٥ - الفرائض (٢٩٠٤)، (٢٩٠١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٧٥١٠٢) وللحديث متابع قوي عند أحمد (٢٠٢٤٣) كلاهما من طريق الحجاج بن أرطاة عند قتادة عن الحسن بن سمرة عن جندب رضي الله عنه، وأخرجه أبو داود (٢٦٧٠ - جهاد) من الطريق نفسه، وأيضاً الترمذي (١٦٣٢ - السر).
(٣) الخطابي: معالم السنن (٢/٢٤٣).
(٤) المبارك كفوري: تحفة الاحوزي (٥/١٧٢) ط. دار الكتب العلمية.

الذي له نفع في قومه، وهذا النفع إما أن يكون ماديا (قوة وبأس ونجدة) أو معنويا (رأي ومشورة وحكمة)، وهذه المعاني متسقة أيضا مع ما سبق من معانٍ.

ولا يعكر على ما سبق من معانٍ ما قد يشتبه من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» فقال عمر رضي الله عنه ... ألا ترى أن الشيخ إذا لم يحصن جلد وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم ^(١) ؟ ، وورد الخبر عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقد خشيت أن يطول بالناس زمان، حتى يقول قائل: ما أجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة من فرائض الله، ألا وإن الرجم حق: وإذا أحصن الرجل وقامت البينة، أو كان حمل أو اعتراف، وقد قرأتها ((الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده)) ^(٢).

قال الخطابي - رحمه الله - : « وهو ما رفعت تلاوته وبقي حكمه - والله اعلم - (ثم قال رحمه الله) : - وفي الحديث من الفقه : « أن الرجم إنما يجب على المحصن دون من لم يحصن أهـ » ^(٣) .

أقول : هذا لا يدل على أن للشيخ معنى خاصا، وإنما الشيخ هنا على المعنى الأول، وهو المسن، ومن مقتضياته (في الغالب) أن يكون متزوجا، فالْحَصُور

(١) أخرجه أحمد (٢١٥٩٦).

(٢) صحيح . أخرجه ابن ماجة (٢٥٥٣ - حدود) وصححه الألباني (٢ / ٨١ - صحيح الجامع) ط. مكتبة التربية بالرياض .

(٣) الخطابي : معالم السنن (٣ / ٢٧٩) .

من الشيوخ لا يكادون يذكرون، إنما ذكر الشيخ ولم يقل المتزوج؛ تبشيعا لحال الشيخ إن فعل، يدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : - ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيكهم ولهم عذاب اليم : ((شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر)) ^(١) ، قال القاضي عياض - رحمه الله - : خص هؤلاء الثلاثة باليم العذاب وعقوبة الإبعاد ؛ لالتزام كل واحد منهم المعصية التي ذكر على بعدها منه، وعدم ضرورته إليها وضعف دواعيها عنده ... أشبه أقدامهم عليها: المعاندة والاستخفاف بحق المعبود محضا ، وقصد معصيته لا لغير معصيته .. ^(٢)

تبين من هذا التأصيل اللغوي والعرف الشرعي أن الشيخ: ليست كلمة تطلق هكذا، بل لها مدلولات: ظاهرة وباطنة .. مادية ومعنوية ... فاعلة ومنتجة .. حالية ومستقبلية ... إنَّ هذا اللفظ يعكس ثقافة وحضارة وهوية الأمة الإسلامية، وأخلاقها الفريدة ، وما أحسن ما ذكره قاموس المنجد، وبعضه ذكره الزبيدي ، أن الشيخ يطلق على: الأستاذ ، والعالم ، وكبير القوم ، ورئيس الصناعة ، وعلى من كان كبيرا في أعين القوم : علما أو فضيلة أو مقاما، ونحو ذلك : شيخ المرأة؛ أي: زوجها أه ^(٣) .

(١) أخرجه مسلم (١٧٢ - كتاب الإيمان) .

(٢) القاضي عياض : إكمال المعلم (٣٨٣ / ١) .

(٣) قاموس «المنجد في اللغة والأعلام» ص / ٤١١ ، دار الشرق ، بيروت ، ط ٤٠ - ٢٠٠٣ م ، وانظر هذا أيضا للزبيدي : تاج العروس (٢٨٨ / ٧) .

وامتد أثر دلالة «الشيخ» لتصل إلى اللهجة العامية ، فيقولون : شاخ فلان على عمل هذا : أي أصبح هذا العمل لا يليق بسنه أو قدره ... والشيخ : من استبان فيه السن اهـ ^(١) .

أقول : وكل كبير في صنعة أو مهنة يطلق عليه «شيخ» مثل شيخ الصيادين ، شيخ النجارين وهكذا .. وسبق التنويه إلى ذلك في مادة «المنجد» .

لقد صارت المعاني المعتبرة لكلمة شيخ : جليلة في اللغة وعرف الخطاب الشرعي بل وفي اللهجة العامية ، فلا يجوز بعد ذلك - والله اعلم - التسامح في إطلاق كلمة «شيخ» على كل من استبانت لحيته في وجهه ! أو كل من أظهر تسننا دون علم أو فقه ! أو كل من تقدم في التسنن زمنا دون معرفة أو دراية أو حكمة أو فضل أو فضيلة ... فلا بد من ضبط المصطلحات وإطلاقها على أصحابها ، فهذا سلوك حضاري وقيمي !! أرأيت هل يمكن أن يسمى الطبيب نجار؟ أو المهندس طبيا؟ أو الفلاح صيدلانيا؟ وهذا أيضا من الباب نفسه !! وعليه : لابد من مراعاة إطلاق هذا «اللفظ» فلا يطلق إلا على من استحقه لغة أو عرفا أو شرعا .. والله تعالى أعلى وأعلم .

أما ماهي وظائف الشيخ التي من أجلها قدم ؟ هذا ما سيفتح من خلال الحديث عن مسئوليات المشيخة ، وهو ما سيتم عرضه لاحقا .

(١) د. عبد المنعم سيد عبدالعال : معجم الألفاظ العامية ص / ٣٣٧ ط . مكتبة الخانجي . القاهرة

« المشيخة والمسئولية » معنى المسئولية - لغة وعرفاً

(المسئولية): وصف من (السؤال) وهو: الاستخبار، يقال: سألته عن الشيء: استخبرته. والمسئول: هو المطلوب المرغوب فيه، ففي قوله - تعالى -: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعَدًا مَسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٦] قال ثعلب: وعدا مسئولا إنجازاه، يقولون: ربنا وعدتنا فأنجز لنا وعدك اهـ. ويأتي المسئول بمعنى: من يحاسب ويُحَاقق، ولعل من ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] قال الزجاج: سؤالهم سؤال توبيخ وتقرير؛ لإيجاب الحجة عليهم؛ لأن الله جل ثناؤه عالم بأعمالهم اهـ^(١). ثم يخطو المعجم اللغوي الحديث خطوة عندما يأت بمادة لغوية عصرية دلالية للمصطلح «المسئول»، فهو: «المنوط به عمل تقع عليه تبعته»^(٢) والتَّبَعَةُ: العاقبة وما يترتب على الفعل من أثر. ^(٣) لكن رمز المعجميون إلى أن هذه الدلالة محدثة^(٤).

وإمعانا في التدليل على حداثة هذا المعنى، وأنه من اجتهاد معجمي المجمع

(١) انظر هذه المعاني اللغوية عند ابن منظور: لسان العرب (٣/ ١٩٠٧) ط. دار المعارف، ولزبيدي: تاج العروس (١٤/ ٣٢٤) ط. دار الفكر، بيروت.

(٢) انظر لمجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط (١/ ٤٢٦) القاهرة، ط ٣ - ١٩٨٥ م.

(٣) (١/ ٨٥ المعجم الوسيط).

(٤) (١/ ٤٢٦ - المعجم الوسيط).

ذكر المعجم الوسيط فقال: المسئولية: «حال أو صفة من يُسأل عن أمر تقع عليه تَبَعْتُهُ، يقال: أنا بريء من مسئولية هذا العمل... (مج).»^(١)

ولعل هذه الحادثة ناشئة عن سياق سياسي غربي يكتنف اللفظ؛ ذلك أن المعنى المعاصر لـ «المسئول» و «المسئولية» وُجد في البيئة السياسية الأمريكية، فعرفت هذه البيئة هذه الألفاظ، فهناك: المسئول الانتخابي، ومسئول الانضباط الحزبي، والمسئولية الجماعية، ويُعنى بها: مسئولية [أي حق المساءلة] أعضاء الوزارة فرادى أو مجتمعين أمام المجلس التشريعي.^(٢) وظاهرٌ أن الدلالة السياسية العرفية لـ «المسئولية» في السياق الغربي قد تَمَّ ارتقاؤها؛ لتعم بلاد المشرق، هذه البلاد التي وقعت فريسة التدخل الغربي منذ أكثر من قرن من الزمان، هذا التدخل الذي غير في التركيبة الثقافية واللغوية والاجتماعية للعديد من البلاد الإسلامية، وصار من جملة التأثير في العرف اللغوي الاجتماعي، ومن جملة هذا العرف اللغوي الاجتماعي بل والاصطلاحي أيضا كلمة التشكيل الدلالي لمصطلح «المسئولية».

وهذا العرف ودلالته: محترم معتبر، ما كانت الجماعة الاجتماعية اللغوية المتكلمة بهذا اللفظ: محترمة له؛ وذلك بسمة طرده فيها، وعندئذ يصير هذا

(١) انظر (١/ ٤٢٦ - المعجم الوسيط) و (مج): إشارة إلى كون اللفظ من إجتهد معجمي المجمع.

(٢) انظر عتريس، محمد: الموسوعة في المصطلحات السياسية... ص/ ٥٧٩ مكتبة الآداب، القاهرة، ط ٢٠١٤م.

العرف ضابطا لماهية اللفظ اللغوي وأصلا وموجها لدلالته، وإليه المرد عند التباكس اللغوي؛ وبذا يكون العرف في قوة النص، وهذا مُقَرَّر عند الأصوليين، فهذا ابن نجيم يقول: «المبحث الثاني: العادة المُطَرِّدة هل تنزل منزلة الشَّرْط؟ ثم يقرر - في الإجارة - ليقول: المعروف عرفا كالمشروط شرعا» اهـ^(١) ويقرر الأصوليون أيضا أنه «المعروف عرفا كالمشروط شرطا» والثابت بالعرف كالثابت بالنص» اهـ.^(٢) أو بعبارة أخرى «المعروف عرفا كالمشروط شرطا، بل كالمشروع شرعا، إذا لم يتناف مع الأحكام الشرعية» اهـ^(٣) إذن ظهر جليا أن المعنى العرفي لكلمة (المسئول) ومن ثم (المسئولية) قاضية على المعنى اللغوي، ويفيد تقرير هذا المعنى العرفي مع إيشابه شيئا من المعنى اللغوي - والمسامحة في ذلك معتبرة - لنقول:

المسئول : من يُحَاقِق وَيُحَاسِب على عمل (ما) نِيْط به تقع عليه آثاره وعواقبه، وبهذه الحيشية تعددت المسئوليات (دينية/ اجتماعية/ أسرية/ شخصية/ أخلاقية/ جنائية/ قانونية...). وإثبات أن هناك من يُحَاقِق وَيُحَاسِب «المسئول»: إثبات لجهة أعلى، وهذا متصور في مسئوليات الدنيا بتنوعها، فلا

(١) ابن نجيم المصري، زين الدين بن إبراهيم (ت: ٩٧٠هـ): الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان ص/ ٨٤ خدمه/ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١-١٤١٩هـ=١٩٩٩م.

(٢) خلاف، عبد الوهاب (ت: ١٣٧٥هـ): علم أصول الفقه ص/ ٩٠ مكتبة الدعوة، القاهرة (مصورة عن ط٨ لدار القلم).

(٣) الريسوني، أحمد: نظرية المقاصد عند الشاطبي ص/ ٩٩ الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط٢-١٤١٢هـ=١٩٩٢م.

يحاسب «عامل» المدرسة وزيرُ التعليم، وإنما يحاسبه ناظرُ المدرسة، ولا يحاسب عاملُ النظافة في الشارع محافظُ البلدة، وإنما يُحاسبه رئيسُ العمال، وهكذا... فتعلوا رتبة المسئول بعلو رتبة من يحاqqه ويحاسبه، وهذا يستدعي من جهة أخرى تعظيم ومهابة وتوقير هذه الجهة العليا، فما بالك إذا كان المسئول مُحققاً أمام الله سبحانه!! قال الله - عز وجل - : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦] وقال سبحانه: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٩٢] وقوله - تعالى -: ﴿ لَنَسْأَلَنَّ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٨].

وهنا تتبدى أهمية «مسئولية» أهل العلم؛ لأن الذي سيسألهم هو الله - تعالى - إنه مقام عظيم، وموقف مهيب، لا ينجو منه من ابتلاهم الله أو اصطفاهم بالعلم إلا من رحم، نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من المرحومين.

*** ** *

« المشيخة والمسئولية » العلم ومفهوم المشيخة

العلم بالله وشرعه وخلقه وكونه: من جملة الخصائص الأساسية المشكلة لشخصية «المشيخة»، ولقد بَزَّ في زماننا هذا فئام من الناس، طَلَبْتَهُم للعلم لا تعكس بُعْدًا حقيقيًا ممتدًا إلى قلوبهم، وإنما هو «ترف» أو «مسائل طبولية» أو «مسائل طائفة» يطار بها وربما كانت سببا لبعض المكاسب في الدنيا، ورحم الله سفيان الثوري عندما قال - وهو أحد أئمة الإسلام في الحديث - : «إنما يطلب الحديث ليتقى الله به؛ فلذلك فَضِّلَ على غيره من العلوم، ولولا ذلك - أي النية الصالحة - لكان كسائر الأشياء». ^(١) فلما طُلِبَ الْعِلْمُ لله ولإيقاع خشيته وتقواه وإرشاد من هداه الله واصطفاه وإقامة الحجة على من ضَلَّ عن الهداية وعصاه: كان طلب العلم حميدا راشدا! وحسبنا قوله ﷺ: «ومن سلك طريقا يلتمس به علما: سهل الله له به طريقا إلى الجنة... الحديث». ^(٢) وعن معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» ^(٣)

وهذا العلم الحميد، كما هو نافع لصاحبه، فإن صاحبه ينفع به غيره؛ ولهذا كان ﷺ يدعو فيقول: «اللهم إني أسألك علما نافعا، وأعوذ بك من علم لا

(١) إسناده حسن. أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١١٥٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا به.

(٣) أخرجه البخاري (٧١ - الإبان).

ينفع»^(١)، ينتفع به صاحبه: يَعْمُرُ به قلبه، وتزكو به نفسه، وتسمو به أخلاقه، وتطهر به أفعاله، ثم هو يُعَلِّمُ الناس ويوجههم، فيكون العلم نافعا للمسلمين أيضا. إن قيمة العلم في جانب مهم منه في نفعه المتعدي؛ لذلك قُدِّم على العبادات المستحبة ذات النفع غير المتعدي، فقد قال رسول الله ﷺ: «فضل العلم خير من فضل العباداة [يعني: دون الفريضة]، وملاك الدين: الورع»^(٢). قال إسحاق بن منصور: قلت لأحمد بن حنبل: تَذَاكُرُ العلم بعض ليلة أحبَّ إليَّ من إحيائها! أي علم أراد؟ قال أحمد: هو العلم الذي ينتفع به الناس في أمر دينهم، قلت: في الوضوء والصلاة والحج والطلاق ونحو هذا؟ قال: نعم»^(٣). وقال الشافعي: «طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة»^(٤).

إذن هناك ارتباط وثيق بين العلم والنفع (الذاتي والمتعدي)؛ قال سفيان ابن عيينة: «ليس شيء أنفع من علم ينفع، وليس شيء أضر من علم لا ينفع»^(٥) ولبركة هؤلاء المشيخة (العلماء الربانيين الذين طلبوا العلم لله، وانتفعوا به

(١) إسناده صحيح. أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٧٨١٨)، وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٥١١).

(٢) في إسناده كلام. لكن له طرق ربما ترقيه للحسن، أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٩٦) وعبد الرزاق في «المصنف» (٥٤٠ / ٨).

(٣) إسناده صحيح. أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٠٨).

(٤) إسناده صحيح. أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١١٩ / ٩) والبيهقي في «مناقب الشافعي» (١٣٨ / ٢).

(٥) إسناده صحيح. أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٠٨٦).

ونفعوا العباد والبلاد) كان حبههم: من جملة السنن المطلوبة، وشعائر أهل السنة المرغوبة، فعن طاوس «إن من السُّنة أن يُوقَّر أربعة: العالم، وذو الشبهة، والسلطان، والوالد»^(١) وجملة نفعهم كان مدحهم في الملأ الأعلى وعند الخلائق كلها، ولم لا، وهذا الشيخ العالم الرباني ناهجُ طريق الأنبياء، وقائم في الأمة مقامهم تعليماً ونفعاً وإرشاداً وتثبيتاً؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يخرج يطلب علماً [أي: لله وبقصد الانتفاع والنفع] إلا وضعت له الملائكة أجنتها، وسُلك به طريقاً إلى الجنة، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، ولكنهم ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^(٢).

وفي المعنى نفسه عن أبي أمامة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر: ليصلون على معلم الناس الخير»^(٣) وقال ابن عباس ؓ: «معلم الناس الخير يصلي عليه دواب الأرض حتى الحوت في البحر»^(٤). قال ابن عبد البر: الصلاة

(١) صحيح. أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١١/١٣٧).

(٢) حسن. أخرجه الترمذي (٢٦٨٢) وأحمد (١٩٦/٥) وغيرهما من حديث أبي الدرداء ؓ مرفوعاً به.

(٣) حسن. أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) والطبراني في «الكبير» (٨/٧٩١٢/٢٧٨).

(٤) إسناده صحيح. أخرجه موقوفاً عن ابن عباس: ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/١٨١).

هنا: الدعاء والاستغفار، وهو بمعنى «والملائكة تضع أجنحتها؛ أي تدعو، والله أعلم^(١)». وبحيثية طلب العلم الذي يُقصد إلى الممات وبحيثية النفع والانتفاع بالعلم المطلوب: يشترك العالم وتلميذه في الثواب، إنها يسيران في اتجاه واحد، وعلاقة التلميذ بالأستاذ أو الطالب بالشيخ أو المتعلم بالمعلم: علاقة إيمانية، تقوم على تحري المقاصد من طلب العلم، فلما اشتركا في القصد والفعل والانفعال: اشتركا أيضا في الثواب والأجر، جزاء وفاقا، والجزاء من جنس العمل، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما آوى إليه، والعالم والمتعلم شريكان في الأجر، وسائر الناس همج لا خير فيهم»^(٢).

ولهذا كان من أشرط الساعة: رفع العلم؛ أي قبضه، ولازمه: فشو الجهل (إثباته)^(٣)، وفسّر النبي صلى الله عليه وسلم القبض بقوله: «إن الله لا يقبض العلم ينتزعه انتزاعا من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالما: اتخذ الناس رءوسا جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»^(٤). ولهذا ما نجاه هذه الأيام من تصدّر الغلمان (صغار العلم/ صغار السن) أو تصدّر

(١) ابن عبد البر، يوسف ابن عمر (ت: ٤٦٣هـ): جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٧٤) مكتبة التوعية الإسلامية، مصر- ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م.

(٢) حسن لغيره. أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٥٤٣) وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٧).

(٣) فقد روى البخاري (٨٠-كتاب العلم) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من أشرط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل...»، وانظر بنحوه أيضا

(٧٠٦٢-الفتن) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعا به.

(٤) متفق عليه. أخرجه البخاري (١٠٠) ومسلم (٢٦٧٣).

غلما ن أهل الأهواء (صغار الدين ضعيفي الاعتقاد) أو تصدّر من لا دين له ولا خلاق، من حثالة سَقَطِ العلمانية، هذا كله : دليلٌ على قرب الزمان من نهايته، فعن نعيم حدثنا ابن المبارك أخبرنا ابن لهيعة عن بكر بن سودة عن أبي أمية الجمحي، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أشراط الساعة ثلاثا، إحداهن: أن يلتبس العلم عند الأصاغر». ^(١) قال نعيم: قيل لابن المبارك: من الأصاغر؟ قال: الذين يقولون برأيهم، فأما صغير يروي عن كبير: فليس بصغير. وذكر أبو عبيدة في تأويل هذا الجزء عن ابن المبارك: إنه كان يذهب بالأصاغر إلى أهل البدع ولا يذهب إلى السنن، قال أبو عبيدة: هذا وجه... ^(٢)

لقد تحصّل أن من كان على السنة، مُجِدّاً في طلب العلم (عالما أو متعلما) فهو كبير، حتى لو صغر سنه، إنه العلم الذي يجعل من صاحبه قيمة عظيمة، بمقتضى هذه القيمة تنضبط أعماله وتصرفاته، فهو دائم الخير متواصل النفع، ومن أمثلة هذا المعنى: نهي السلف عن إتيان أبواب السلاطين، ثم فعل ذلك عن بعضهم، فقد قال حذيفة رضي الله عنه: «إياكم ومواطن الفتن! قيل له: وما مواطن الفتن؟ قال حذيفة: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول له ما ليس فيه». ^(٣) لكن ثبت أن بعض السلف فعلوه من أجل نفع مُتَعَدِّ

(١) حسن. أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٦١) والطبراني في «الكبير» (٣٦٢/٩٠٨/٢٢).

(٢) نقله ابن عبد البر: «جامع بيان العلم وفضله» (١/٦١٢).

(٣) صحيح. أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١١/٣١٦/٣١٧).

هم يرونه، يدل عليه. أنه قيل للمالك - رحمه الله - : «إنك تدخل على السلطان وهم يظلمون ويجورون!» فقال: يرحمك الله! فأين التكلم بالحق؟^(١)

فأين هذا ممن يفتشون عن دقائق الناس ومدخلهم، ويبحثون عن عواردهم، ويتتبعون عوراتهم، زعماء أنهم يريدون النصيحة!! وليت شعري!! إنهم يبتغون الانتصار لأهوائهم من الآراء والظنون وإن ألبسوها لبوس التدين، وأداروها بكور حب السلف!! أو الرغبة في الحقيقة!! أو الموضوعية!! إننا في جمل مركزة نبغي هذا الشيخ الرباني المُجِدِّ الخلق النافع النَّصِيب المتسنن المنتسب إلى العلم بسبب (عالم/ متعلم)، لكن هؤلاء الأغمار الذين تَنَسَّروا في غيبة النُّسور وتأسدوا في غيبة الأسود، لهم أَشَدُّ خطراً على الأمة من أعدائها الأصليين، لقد اصطلت الأمة بنار هؤلاء الأغيار الأغمار الذين كان إفسادهم مبيراً، فانعدم خيرهم، وانمحي شرفهم، وصاروا مبلسين مفلسين!!

نحن في حاجة إلى هؤلاء المشيخة الربانية للقيام بوظائفها الممدودة في الواقع الممتدة إلى المستقبل، ولعل هذا ما ستثيرة لاحقاً، فكن موصولاً معنا.

*** ** *

(١) أخرجه ابن عبد البر (١١٢٤-جامع بيان العلم وفضله) من طريق ابن أبي حاتم الرازي والسند إليه صحيح.

«المشيخة والمسئولية»

العلاقة بين «المشيخة» و«المسئولية» محاولة لفهم الواقع

لعل ما نراه في الواقع الزاعق ما يكون من أعظم الأسباب لمحاولة التفكير في إعادة صياغة «مفهوم المشيخة» وتصحيح إسقاط المعاني اللغوية والعرفية على الواقع الملابس، لقد رأينا - في هذه الأزمنة المتأخرة - من المشايخ من يفتي بالشيء ونقيضه معا! ومن يربي تلاميذه على معانٍ ثم ينقضها تماما! ومنهم من يتخصص في التبع والثغار ويتربى ويربى على ذلك! ومنهم من يتبع ثوابت الأمة في الاعتقاد والفهم والأخلاق محاولا تصحيحها! فينال من شهادة التوحيد والسنة وأنها ليست شرطا لدخول الإسلام، ومنهم من ينال من الصحابة والأئمة، والأخطر من يحاول هدم السنة هامزا لامزا... كل هؤلاء وغيرهم سواء سمووا بالمشايخ أو المفكرين (الآرائيين) أو (المثقفين) أو (الناشطين) فإنهم - مع بشريتهم - : أمراض خبيثة تخللت جسد الأمة المتهالك! ولذا فإن الحل هو بعث الأمة من جديد - كما سنطرح في نهاية الحديث - إن شاء الله تعالى -

إن «المشيخة» مسئولية في الأمة جسيمة، ولا بد للمرء كي يتصف بها أن يحقق أمورا عدة، هذه الأمور هي خصائص مستفادة من خلال التأصيل اللغوي والعرفي لكلمة «الشيخ» ثم الوقوف على السياقات الشرعية التاريخية

والمقامية التي تعدّ الأنموذج أو التطبيق الصحيح للمعاني سالف ولاحق الإشارة إليها. ويمكن تلخيص هذه الأمور بـ:

أولاً: للمشيخة صفات خَلْقِيّة: وهي: السّن - الشَّيْب -.

ثانياً: للمشيخة معانٍ وأخلاق وأحوال: هذه المعاني والأخلاق والأحوال تعكس الشخصية الربانية العقدية المتكاملة للشيخ، وهي: الثبات عند الفتن والزلازل والمواقف الحرجة - التجارب المتنوعة العميقة - الأخلاق الفاضلة - العلم النافع - حب النفع للأمة - راحة العقل - الحكمة - حسن النظر في الأمور - جودة ربط الماضي بالحاضر لاستشراف المستقبل - تحري الرزق الحلال الذي لا شبهة فيه - الطاعة والعبادة - المروءة والنجدة - الترفع عن الصغائر - عدم الانشغال بسفاسف الأمور - الحرص على الأوقات - حسن توظيف المباحات - حسن المعاشرة - طيب الحديث...

ثالثاً: للمشيخة مسئوليات عملية، تمثل مشاريع التأثير والإصلاح في الأمة، وكلها قائمة على نفع الأمة بنصحها وإصلاحها، وذلك بطرق أهمها: التعليم - التوجيه - التثبيت - المشاركة الفاعلة في أعمال البر والخير...

إن النتيجة الوحيدة لكل ما تقدم من خصائص المشيخة: إنتاج المرء الذي يمكن وصفه بـ«الشيخ»، إنه القدوة والإمام، إنه محط الخير ومقصد الأمة!! وبالتالي لا يصلح أن ينعت امرؤ (ما) بصفة «الشيخ» ويتبوأ مقام المشيخة إلا

إذا حقق ما سبق، وهنا نحكم بوضع علامة «خطأ» على كل الجمل التالية، وهو الواقع المرير الذي نعيشه:

- ١- شيخ حدث السّن قليل التجربة!
- ٢- شيخ لم يتتلمذ على أهل العلم المؤدّبين المؤدّبين!
- ٣- شيخ عجول غير متأن!
- ٤- شيخ منطو غير مشارك في مشاكل المجتمع: رأيا وحلا!
- ٥- شيخ يحرق الأمة بشطط فكره ويفتن الخلق عن الله!
- ٦- شيخ سيء الخلق فاحش اللسان، يباعد بين الأمة وربها!
- ٧- شيخ شائه الاعتقاد!
- ٨- شيخ مضطرب، لا يدري أين الوجه!
- ٩- شيخ أناني انتهازي للفرص مادي!
- ١٠- شيخ غير نافع للمسلمين لا نظريا ولا عمليا!
- ١١- شيخ دائرة نفعه هو الكلام فقط!
- ١٢- شيخ ليست له مدرسة تربوية!

١٣ - شيخ يطمح في الظهور!

١٤ - شيخ كلامه أكثر من علمه!

١٥ - شيخ معجب بكلامه ورأيه وفعله!

١٦ - شيخ لا يقوى على كلمة الحق - مع مسيس الحاجة إلى ذلك -!

١٧ - شيخ يهذي بما لا يعرف!

١٨ - شيخ تحكمه الأهواء!

١٩ - شيخ يفتقد إلى التصور والرؤية الشاملة أو المستقبلية الصحيحة!

٢٠ - شيخ لا يعي الأحداث أو الوقائع على صورتها الصحيحة!

٢١ - شيخ أذناه: أداة علمه!

٢٢ - شيخ لا يقوى على تحرير مسألة أو إِبصار الحق في قضية!

٢٣ - شيخ حاجته إلى الخلق أعظم من حاجته إلى الله الحق!

٢٤ - شيخ لا يوظف كل شيء لخدمة الدين ونفع المسلمين!

٢٥ - شيخ لا تؤمن غوائله ولا تعرف عواقبه!

هذه نماذج شائكة - في زماننا - من مدعي «المشيخة» ومن حاول أن يلحق

بهم أو يتشبه (مفكرين - مثقفين...)، وإن اغتر بهم من اغتر، فإن الحقائق لا تتغير! إن «المشيخة» المقصودة المطلوب إيجادها، هي التي كونت ضمير الأمة في العهد الأول، وكان صهام الأمان لها في مواقف الأزمات! ففي البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدخلني مع أشياخ بدر...» الخبر^(١)، يقول ابن حجر: «وكانت عادة عمر إذا جلس بالناس أن يدخلوا عليه على قدر منازلهم في السابقة، وكان ربما أدخل مع أهل المدينة من ليس منهم إذا كان فيه مزية تجبر ما فاته من ذلك (يعني ما فاته من السبق في الإسلام)». فتأمل كلمة «أشياخ بدر»! لتعرف من هم؟ هم الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ونظر الله إليهم فغفر ذنبهم، وحادثة حاطبة بن أبي بلتعة شاهد صدق على ذلك!.

إن «الشيخ» ها هنا قيمة اجتماعية لا يستغنى عنها؛ ولذلك كان احترامه وتوقيره من السنة كما مرَّ في ذكره، ولتزداد الرؤية وضوحاً، يمكن الوقوف على ما هية «المشيخة» من خلال تلمس دور المشايخ.. وأول شيخ في تاريخ الإسلام هو «أبو بكر الصديق» رضي الله عنه، له سماتٌ علمية وأخرى عملية اجتمعتا لتشكلا مع مكونات الشخصية رجلاً شيخاً قدوة تنطبق عليه المعايير الماضية، يقول ابن إسحاق: «كان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً مؤلفاً لقومه، محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش وأعلمهم بما كان منها من خير أو شر، وكان تاجراً ذا

(١) البخاري (٤٩٧٠ - تفسير).

(٢) ابن حجر: فتح الباري (٨/ ٦٠٧).

خلق ومعروف، وكانوا يَأْلَفُونَهُ لِعِلْمِهِ وَتِجَارَتِهِ وَحَسَنِ مَجَالِسَتِهِ، فَجَعَلَ يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ مِنْ وَثْقٍ، فَأَسْلَمَ عَلَى يَدِهِ، عَثْمَانُ، وَطَلْحَةُ، وَالزَّبِيرُ، وَسَعْدُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ...»^(١)

وَفِي سِيَاقٍ آخَرَ، يُوظَّفُ أَبُو بَكْرٍ إِمْكَانِيَاتِهِ الْمَادِيَةَ نَصْرَةً لِلدِّينِ وَخِدْمَةً لِلْمُسْلِمِينَ، فَلَقَدْ أَخْرَجَ الْحَمِيدِيُّ مِنْ طَرِيقِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ: كَانَ أَبُو بَكْرٍ مَعْرُوفًا بِالتِّجَارَةِ، وَلَقَدْ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَرْبَعُونَ أَلْفًا، فَكَانَ يَعْتَقُ مِنْهَا وَيَعُولُ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ بِخَمْسَةِ آلَافٍ، وَكَانَ يَفْعَلُ فِيهَا كَذَلِكَ».^(٢)

لَمْ يَكُنْ أَبُو بَكْرٍ - فَقَطْ - فِي مَظْهَرِهِ مُنْفَقًا سَخِيًّا، وَفِي خَلْقِهِ سَهْلًا مَأْلُوفًا، بَلْ كَانَ قَوِي الْجَنَانِ ثَابِتَ الْأَرْكَانِ، لَا يُقَدِّمُ شَيْئًا عَلَى دِينِهِ! تَأْمَلْ!! لَقَدْ كَانَ هَذَا حَالُ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى قُبُضَ، فَفِي مَكَّةَ وَسُورَةَ الْغُرْبَةِ وَوَحْشَةَ الْمَوَاجِهُةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، أَرَادَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ الْهَجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْحَبَشَةِ، فَاعْتَرَضَ أَحَدُ نَبَلَاءِ قُرَيْشٍ، إِنَّهُ ابْنُ الدَّغْنَةِ، فَرَفُضَ رَحِيلَ أَبِي بَكْرٍ وَأَدْخَلَهُ فِي جَوَارِهِ مَعْرُزًا مَكْرُمًا مُحْمِيًّا مَنْصُورًا، إِلَّا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَنَ دِينَهُ قِرْآنًا وَصَلَاةً، فَفَزَعَتْ قُرَيْشٌ، وَطَلَبُوا مِنْ ابْنِ الدَّغْنَةِ أَنْ يَقْصِرَ أَبَا بَكْرٍ ﷺ عَنْ إِظْهَارِ دِينِهِ أَوْ يَرِدَ إِلَى ابْنِ الدَّغْنَةِ جَوَارَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: «أَرَدَ جَوَارِكُ وَأَرْضِي بِجَوَارِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ».^(٣)

(١) ابن حجر، الإصابة (٣/ ٢٤٧).

(٢) ابن حجر: الإصابة (٣/ ٢٤٧).

(٣) انظر السياق بتهامه عند عبد الرزاق في المصنف (٥/ ٣٨٤) ح/ ٩٧٤٣.

لقد كان هذا حال أبي بكر الصديق رضي الله عنه واستمر هذا الحال؛ لنرى ثباته رضي الله عنه وقت وفاته رضي الله عنه وتبلبل الصحابة واضطرابهم؛ ليقف أبو بكر ثابتاً مُثَبِّتاً، ذاكرةً مذكراً قائلاً على المنبر "من كان يعبد محمد فإن محمد قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت" ثم يستمر حاله لنصل إلى موقفه وقت الردة وقاتل المرتدين؛ إنه لم يتباطأ في إنفاذ جيش أسامة رضي الله عنه، هذا الجيش الذي أعده النبي ﷺ لقتال الروم، وفي الوقت نفسه سارع في قتال المرتدين. في مواقف كثيرة: يحتاج ذكرها فضلاً عن بسطها إلى مجلد مطول، لكن ما ذكرناه فيه الإشارة إلى المطلوب.

إنه الثبات على الحق الذي لا مرية فيه، لم يتأخر أبو بكر رضي الله عنه أو يهن أو يضعف، بل كان إسلامه قوياً، لقد كان جديراً أن يلقب بـ «الصديق» الأكبر، قيل لمحمد بن الحنفية: لأي شيء قدم أبو بكر حتى لا يذكر فيهم غيره؟ قال: لأنه كان أفضلهم إسلاماً، فلم يزل كذلك حتى قبضه الله. ^(١)

فالثبات هو الاستملاك بالحق وعدم الحيدة عنه أبداً، فشجرة الثبات ترسخ مع الأيام، لا تتشني ولا تنكسر، لا تن، إنها كذلك حتى يقضي الله أمره ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣] لأجل هذه الصفات المشكلة لشخصية أبي بكر كان أبو بكر!

فعندما نقول أشياخ الصحابة يصير من اللازم استصحاب كل هذه المعاني

(١) ابن حجر، الإصابة (٩/٢٤٧).

السابقة؛ ولذا كان أرباب مشورة الأئمة في صدر الإسلام: هم السابقون من أهل الهجرة والنصرة، ثم الأثبات من أهل الرأي والحكمة والتجربة والاختصاص، وقع هذا ليكون ما فعلوه نبراسا يجري عليه من يأتي بعدهم من أمة الإسلام، وينجلي هذا المفهوم بذكر هذه القصة الماتعة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه؛ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه خَرَجَ إِلَى الشَّامِ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرِغٍ ^(١) لَقِيَهُ أَهْلُ الْأَجْنَادِ - أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ - فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَالَ عُمَرُ: ادْعُ لِي الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ. فَدَعَوْهُمْ، فَاسْتَشَارَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ، فَاخْتَلَفُوا. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ خَرَجْتُ لِأَمْرٍ وَلَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا نَرَى أَنْ تُقَدِّمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ. فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي. ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي الْأَنْصَارِ فَدَعَوْهُمْ لَهُ، فَاسْتَشَارَهُمْ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ. فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي. ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَهُنَا مِنْ مَشِيخَةٍ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ. فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَخْتَلَفْ عَلَيْهِ رَجُلَانِ. فَقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلَا تُقَدِّمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ. فَتَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ: إِنِّي مُصْبِحٌ عَلَى ظَهْرٍ، فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ... قَالَ: فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ عَوْفٍ - وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ - فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ

(١) قرية على حدود بلاد الشام مما يلي الصحراء في الطريق إلى المدينة المنورة.

وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ)، قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ ثُمَّ انْصَرَفَ^(١).

قال القاضي عياض تعليقا على جملة «مهاجرة الفتح» وأنهم مسلمة الفتح، ثم قال: «فإنهم لم ينفردوا بهذا الرأي، حتى يكون هو يؤثر لرأيهم على رأي المهاجرين والأنصار، بل قد وافقهم عليه كثير من الأنصار والمهاجرين كما تقدم من اختلافهم، فحصل ترجيح الرأي بالكثرة، لا سيما لأولي السن والحنكة والتجربة والعقول الراجحة. اهـ^(٢) وظاهر أن انشراح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لم يكن عن محض الرأي، وإنما لاتباع السنة؛ ولذلك عندما أخبره عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه بالسنة في ذلك «حمد الله على ما حدثه به ابن عوف؛ لبيان الصواب فيما اختلف فيه عليه من أمره، وأن انصرافه لسنة وشرع لازم. لا لرأي واجتهاد يقع الخلاف فيه.^(٣)

*** **

(١) أخرجه مسلم (٢٢١٩ - كتاب السلام).

(٢) القاضي عياض: الإكمال (١٣٧/٧).

(٣) القاضي عياض: الإكمال (١٣٨/٧).

« المشيخة والمسئولية »

خطة العلاج والعمل .. تصور واقتراح (الخاتمة)

انتهى بنا الحديث قبلُ إلى أهمية «المشيخة» للمجتمعات الإسلامية، لا سيما في الأزمنة المتأخرة، وأن إيجاد هذا المطلوب ليس يسيرا، بل هو في حاجة إلى جهد كبير؛ إذ ما وصلنا إليه من التروي العقدي والفكري والثقافي والتربوي والاجتماعي... إنما هو حرث مُرّ امتد بالأمّة عبر قرون عدة لينتهي إلى أناس هذا العصر!! لذا فإن التغيير المنشود - مع أهميته وضروريته - جدّ عسير، لكن لا بد من تجاوز العقبة بإرادة لا تنفصم وأمل لا ينقطع وعمل متواصل، وهذا كله بغية تأسيس اللبنة الأولى لمشروع نهضة الأمّة وإفاقتها من غفوتها واستنهاضها من كبوتها.

* ولبنة نهوض الأمّة واستعادة عزها ومجدها، تهدف إلى:

أولاً: ارتقاء الأمّة عقدياً وأخلاقياً.

ثانياً: انشغال الأمّة بما ينفعها من أمور المعاش والمعاد.

ثالثاً: إخراج العلماء الربانيين.

رابعاً: التفاف الأمّة حول علمائها.

وبمجموع تحقيق هذه الأهداف يتحقق الإصلاح المنشود بعد التغيير المطلوب، إنه تغيير الأمة لصالح إرضاء الله، ومن ثمَّ يغير الله لها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] ولا يظنُّ أحدٌ أن معنى هذا فصل الدين عن الحياة! أو فصل المعاش عن المعاد! أو فصل القرآن عن المجتمع! أبداً، إنه ظنُّ المتعجلين الذين لم يزرعوا شيئاً في أرض الزمن، ولم يرووا جذر الأمة بغيث التربية، فكان حصادهم ضغثاً، وسعيهم نكداً! أما الذين يسرون على نور من الله وهدى من الإله، فإن رائداهم في الطريق: استصحاب منهاج الأنبياء، وعندها وحينها لم يجدوا إلا هذه الأهداف السابقة طوق نجاة وسبب وصول.

ولتحقيق هذه الأهداف، لابد من انتهاج طرق عملية تنفيذية، تفصيلها هو إيجاد المطلوب فعلاً بأرض الواقع، مع استيفاء شروط الإيجاد وإلغاء أسباب العوائق، وهذه الطرائق:

(١) رفع السقف الأعلى للأمة عن طريق الدعوة والتعليم.

(٢) إعداد برامج لتأهيل المربين (ذكرانا وإناثا) وتخرجهم.

(٣) الاهتمام الجاد بالناشئة قبل سن الخامسة عشرة، ذكرانا وإناثا... (دور

تحفيظ - كتاتيب - حضانات - محاضن - مراكز تربوية ...).

(٤) إعداد مراكز علمية تربوية لإخراج علماء المستقبل المتأهلين والأمهات

٥) إشراك وحدات التأهيل والتنفيذ التربوي في عمليات التنمية المجتمعية المستدامة.

٦) اجتناب الفرعيات وسفاسف الأمور.

٧) البعد التام عن التوجيهات الفكرية المنحرفة.

٨) المشاركة الجادة في أعمال الخير والبر المؤسسية.

٩) التدرب المتواصل على اكتساب الفضائل وترك الرذائل.

١٠) الحذر من غشيان موارد الفتن أو التلبس بها؛ فإن الفتن تدور بمن دخل فيها وتفور، كما يفعل القدر إذا استحكم غليانا بها فيه!

لقد بدا - أيها الأحباب - عِظَم المسؤولية، وأن أعظم من يقوم بها: إعدادا وتوجيها وتنفيذا ومتابعة هم طائفة (المشيخة)، إنهم أمل الأمة!

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
ضرورة الاعتبار بسنن التاريخ	١٥-٧
تحليل الأحداث ملاحظات بالقلب وبالعين وترجمة ابن باديس	٣١-١٦
ملامح لإنجاح خطوات المجد للدين والأمة	٣٩-٣٢
ضرورة محاربة التقليد	٤٥-٤٠
فتاوى أهل العلم بجواز المشاركات السياسية قراءة تأملية في	
ضوء قواعد وروح الشريعة	٥٦-٤٦
تأملات في بعض أحداث ما بعد ٢٥ يناير ٢٠١١م وأثر ذلك	
في الواقع المصري، العرض .. والأمل	٧٥-٥٧
وضع الأقليات في مصر محاولة نزع المكاسب	٨٠-٧٦
المشيخة والمسئولية، المقدمة	٨٦-٨١

- المشيخة، معنى المشيخة (المعنى الأول) ٨٧-٩٢
- المشيخة، معنى المشيخة (المعنى الثاني) ٩٣-١٠٠
- معنى المسئولية، لغة وعرفا ١٠١-١٠٤
- العلم ومفهوم المشيخة ١٠٥-١١٠
- العلاقة بين المشيخة والمسئولية محاولة لتفهم الواقع ١١١-١١٩
- خطة العلاج والعمل.. تصور واقتراح ١٢٠-١٢٢
- فهرس الفوائد والموضوعات ١٢٣-١٢٤